فريد حجا

إلياس قنصل

الشّاعِرُ والكاتبُ والانسانُ العربيّ

١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م

فريد جحا

اشتريته من شارع المتنبي
ببغداد في ٢٠/رجب/١٤٤٧هـ
٩ / ١ / ٢٠٢٦ م

م. سرمد حاتم شكر

سرمد حاتم شكر

الياس قنصل

الشاعر والكاتب والانسان العربي

١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م

الصّديق الشّاعر العالم العربي أبو فراس
عرفت فيك دائماً تقديساً للعروبة وشغفاً لا حدّ له بالشّعر الجيّد.
فاسمح لي أن أقدّم لك هذه الدّراسة عن شاعر عربي كبير من شعراء المهجر تحيّة وتقديراً.

المؤلف

حلب الشهباء في الأول من صفر الخير لعام ١٤٠٣ هـ
والسادس عشر من تشرين الثاني لعام ١٩٨٢ م

تمهيـد

يحتل الياس قنصل مكانة خاصة بين شعراء المهجر وأدبائـه . انـه كما يقول مؤرخ أدب المهجر الكبير جـورج صيدح : ((أخصب أدباء المهجر الجنوبي .)) وهو غزير النتاج متنوعه : لقد خلف وراءه واحدا وعشرين كتابا مطبوعا باللغة العربية ، وأربعة كتب باللغة الاسبانية ، كما ترك بعده ثلاثا وعشرين مخطوطة. في هذه المؤلفات المخطوطة والمطبوعة جميع فنون الادب من شعر ومقالة وأقصوصة وقصة ورواية ونقد ودراسة .

على أن هذا النتاج ترفرف فوقه قبل كل شيء ، تلك الروح العربية التي تبسط جناحيها على كل ما كتب : يتجلى ذلك في الاسلوب وفي المضمون جميعا . في الاسلوب نجد لفظا أنيقا ، وجملة قصيرة ، وصورة رشيقة ، وفي المضمون طلب الحرية للعرب ، وتحرير أرضهم المغتصبة ، واستعادةالقدس السليبة ، ثم مع هذا كله حنين للوطن ، وفرحة بلقائه ، وحب للعرب ، واعتزاز بأمجادهم وتاريخهم ، وطلب الرفعة ، كل الرفعة ، لهم في حاضرهم ومستقبلهم .

وكان الياس قنصل بالاضافة الى هذا كله انسانا طيب القلب ، صريح القول ، كريما كريما ، وواسع الأفق . ترك وطنه صغيرا ، فعلم نفسه احسن ما يكون التعليم ، ونظم الشعر فبرع فيه ، وكتب في فنون النثر كلها ، وأتقن اللغة العربية التي كان يحبها ويحرص عليها ، لأنها لغة القرآن الكريم ، ولغة هذا الادب العربي العظيم ، الضارب في التاريخ على مدى ستة عشر قرنا .

وكان الياس قنصل صديقا صدوقا ، ربطتني بهصداقة عشرين عاما عن طريق الرسائل ، كان خلالها الاخ الكريم ، والخل الوفي ، ولما التقينـا في حلب ، لم يتح لنا ـ لضيق

الوقت ــ ان نجتمع سوى مرتين امتد اللقاء فيهما حوالي عشر ساعات . لكن هذه الساعات القليلة كانت كافية لتمتين عرى صداقة تمت عن بعد ، واثبتت ان وجهات نظر كثيرة كانت تجمع بيننا .

دفعني هذا كله الى كتابة هذا البحث الذي كان مقررا له أن يكون مقــالا ، فجاء كتابا ، حــاولت أن أقــدم فيه تحية مناسبة لروح الياس قنصل الصديق والشاعر والكاتب والانسان العربي .

وكلي أمل أن أكون قد وفقت فيما كتبت ، واستطعت تقديم بحث يتناسب مع المكانة التي يحتلها الياس قنصل في أدب المهجر .

المراجـــع

آ ـ آثار الياس قنصل (*)

الاسلاك الشائكة	شعر	بوينس آيرس	١٩٣١
على مذبح الوطنية	شعر	بوينس آيرس	١٩٣١
السهـــام	شعر	بوينس آيرس طبعة ثالثة	١٩٣٥
على ضفاف بردى	رواية	بوينس آيرس	
أصنـام الادب	دراساتأدبية	بوينس آيرس	١٩٣٩
بسمات الفجر	شعر	بوينس آيرس	١٩٤٠
غالب أفندي المغلوب	قصة	دمشق ـ دار الرواد	١٩٥٥
فلسفة حمـار	قصة	دمشق ـ دار ابن المقفع	١٩٥٥
رباعيات قنصل	شعر	دمشق ـ دار الرواد	١٩٥٦
أدب المغتربين	دراساتأدبية	دمشق ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي	١٩٦٢
من مناهل الحياة	أقاصيص	بغداد ـ وزارة الثقافة والارشاد	١٩٦٧
في مهب الريح	قصة	بوينس آيرس	١٩٧٢
ألحان الغروب	شعر	دمشق ـ اتحاد الكتاب العرب	١٩٧٨
مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية	دراساتأدبية	دمشق ـ اتحاد الكتاب العرب	١٩٨٠

★ اقتصرنا هنا على الآثار التي أتيح لنا الاطلاع عليها ، أما ثبت آثاره الكاملة المخطوطة والمطبوعة ، فقد أوردناها في قسم آثاره من المقدمـات .

ب ـ المراجع الأدبية العامة (★★)

جورج صيدح	أدبنا وأدباؤنا في المهـاجر الاميـركية ـ الطبعة الثالثة بيروت ١٩٦٤
مجلة المعرفة	تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق اعداد عام ١٩٦٦
مجلة الفـداء	لسان حال الجالية العربية في كراكاس بفنزويلا عدد آب كانون الأول ١٩٨٠
مجلة المناهل	أصدرها الياس قنصل بدءا من نيسان عام ١٩٣٧، وقد أطلعنا على بعض أعـداد مـن عامهـا الأول (١٩٣٧ ـ ١٩٣٨)
عيسى الناعوري	أدب المهجر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٩
فريـد جحـا	الحنين واللقاء في شعر المهجـر ، مطبعة الضاد حلب ١٩٦١
فريـد جحـا	العـروبـة في شعر (المهجر) مكتبة راس بيروت بيروت ١٩٦٥

(★★) أوردناها حسب ورودها في الدراسة .

القسم الأول

مقدمات

حياة الياس قنصل

آثاره

الياس قنصل الصحفي

الياس قنصل الصديق

حياة الياس قنصل

توفي الياس قنصل يوم ١٩٨١/٣/٢٠ « اثر عملية جراحية في الوريد ، عاش بعدها خمسة عشر يوما [١] • » وقد نعته أكثر الاذاعات العربية ، والكثير من صحف الوطن العربي ، كما نعاه اتحاد الكتاب العرب بدمشق نعياً مؤثرا ، ثم قرر أن يقيم له حفل تأبين كبير بدمشق[٢] ، وأن يصدر عنه ملفاً خاصاً ملحقاً بأحد أعداد مجلة (الموقف الادبي) • ولا غرابة في ذلك ، فالياس عضو الاتحاد ، وواحد من أكبر أدباء المهجر ، وأعمقهم عروبة ، وأغزرهم نتاجاً ، وأكثرهم تنوعاً في هذا النتاج : فآثاره قد قاربت الخمسين باللغة العربية بين مخطوط ومطبوع [٣] ، وله أربعة كتب باللغة الاسبانية « أحدها عن جبران خليل جبران : حياته وآثاره [٤] • »

---

(١) من رسالة لاخيه الشاعر زكي قنصل مودعة في البريد يوم ١٩٨١/٤/٣٠ في بوينس آيرس ، وموجهة الى الاستاذ عبدالله يوركي حلاق .

(٢) علمت أن تاريخ هذا الحفل قد حدد بصورة مبدئية في الاسبوع الاول من حزيران ١٩٨١ •

(٣) عدد آثاره المخطوطة ، ٢٣ ، والمطبوعة ٢١ ، وهي باللغة العربية ، يضاف اليها ثلاثة باللغة الاسبانية . ينظر الجدول الكامل بعناوين هذه الآثار في نهاية روايته (في مهب الريح) المطبوعة في بوينس آيرس عام ١٩٧٢ ، يضاف اليه : (في مهب الريح) ١٩٧٢ ، و (ألحان الغروب) ديوان شعره الذي نشره له اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ١٩٧٨ ، وكتابه الآخر (مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية) الذي طبعه اتحاد الكتاب العرب أيضا في عام ١٩٨٠ .

(٤) في جدول (في مهب الريح) ثلاثة كتب باللغة الاسبانية كنا قد ترجمنا أسماءها فيما سبق ، ويضيف أخواه : زكي في رسالته المشار اليها سابقا ، وكرم في تعريف له بأخيه مرسل من دمشق في الشهر الخامس من عام ١٩٨١ ، أن لأخيهما أيضا كتابا باللغة الاسبانية عن جبران خليل جبران : حياته وادبه .

رأى الياس قنصل النور في يبرود البلدة السورية الجميلة التي تقع الى الشمال الغربي من حمص في ١٣ نيسان ١٩١٤ (٥) ، وقد رحل مع والده الى البرازيل وعمره سنتان (٦) ، فتعلم العربية هناك ، ثم عادا الى بلدتهما بعد أربع سنوات ، حيث دخل مدرستها الابتدائية وتلقى العلم فيها (٧) ، وما لبث أن هاجر الى الأرجنتين التي غدت منذ تلك السنة مغتربه الدائم ، وقد عمل في البرازيل مستخدما في محل تجاري بأجر زهيد كان ينفق معظمه على شراء الكتب العربية ليقرأها ، ثم حمل الكشة ، واتجر بها بعد أن خلفه أبوه في البرازيل عائدا الى الوطن لمدة وجيزة آب بعدها الى البرازيل مع أخيه الصغير زكي ، ليترك الثلاثة البرازيل الى الأرجنتين في عام ١٩٢٨ (٨) .

ويظهر أن الأدب قد استهواه ، فعمل محررا في (الجريدة السورية اللبنانية) (٩) من عام ١٩٣١ ، ثم غدا بعد شهرين رئيس تحريرها لمدة سبعة أعوام (١٠) ، ولما لمس نجاحه في العمل الصحفي أصدر في عام

---

(٥) من التعريفين المرسلين من أخويه كرم وزكي الى الاستاذ عبد الله يوركي حلاق في شهر مايس من عام ١٩٨١ ، وهو التاريخ نفسه الذي سجله الياس قنصل في مفتتح ديوان (ألحان الغروب) ، وكتاب (مأساة الحرف العربي ..) .

(٦) من تعريف أخيه كرم المشار اليه سابقا .

(٧) من التعريفات المثبتة في ديوانه (ألحان الغروب) ، وروايته (في مهب الريح) وكتابه (مأساة الحرف) وكذلك مما سجل أخواه في رسالتيهما المشار اليها فيما سبق .

(٨) تفصيلات حياته في البرازيل مستمدة من تعريف أخيه كرم المشار اليه .

(٩) جريدة كانت تصدر في بوينس آيرس ، وصاحبها هو موسى يوسف عزيزة الذي كتب مقدمة أول دواوين الشاعر .

(١٠) من التعريفات التي كتبها الياس في كتبه ، ومن تعريف اخيه زكي ، بينما لا يحدد أخوه كرم المدة ، وان كان قد أعطانا سنة بدئه العمل في الصحيفة محررا ثم رئيسا لتحريرها ..

١٩٣٧ مجلة (المناهل) الشهرية ، التي استمرت في الصدور ثلاثةأعوام، حجبها بعدها متفرغاً للعمل التجاري من جهة ، ولنظم الشعر وكتابة المقالات والقصص والروايات ونشرها في مختلف المجلات المهجرية والعربية من جهة ثانية [١١] ، ومقدماً للمكتبة العربية بين سنتي ١٩٣١ و ١٩٥٥ أحد عشر مؤلفاً فيها الديوان والقصة والرواية والنقد[١٢] من جهة ثالثة .

امتازت هذه المرحلة الهامة من حياته بهذا الانتاج الغزير ، وبتتبعه أنباء الوطن العربي السياسية والأدبية والفنية ، كما تشهد بذلك مجلته (المناهل) التي كانت غنية بأخبار سورية وسائر البلاد العربية [١٣] . كما امتازت هذه المرحلة بالشعر الكثير الذي نشره تمجيدا لبطولات الثوار الذين كانوا يقارعون الاستعمار الفرنسي في سورية ، وخاصة في الثورة السورية الكبرى لعام ١٩٢٥ ، وبصلاته المستمرة والطيبة برجالاتها ، وبتتبعه أنباء الاضراب الكبير الذي قام في المدن السورية عام ١٩٣٦ ، والذي اضطرت فرانسا في نهايته الى الاعتراف باستقلال سورية ، والى اجراء انتخابات نجح فيها الرجال الوطنيون ، بعد أن وقعت معهم ما عرف بمعاهدة عام ١٩٣٦ . لذلك سرعان ما منحت الحكومة الوطنية في دمشق الشاعر الياس قنصل

(١١) من التعريفات المشار اليها سابقا ، وقد حدد أخوه كرم خطأ عام ١٩٣٦ سنة اصدار (المناهل) .

(١٢) عناوينها ، وسنوات اصدارها ، وأنواعها الأدبية في التعريف الملحق بروايته (في مهب الريح) .

(١٣) اطلعنا على أعداد السنة الاولى من المجلة ، في مكتبة الصديق الاستاذ عبد الله يوركي حلاق ، فوجدناه يزود كل عدد الاخبار السياسية والادبية والفنية المتعلقة بالوطن العربي ، مما يفيد بأنه كان للمجلة مراسل في دمشق ، وآخر في القاهرة .

وسام الاستحقاق تقديرا لاسهامه بشعره القومي في النضال ضد المستعمر ، وقد تم ذلك في عام ١٩٣٦[١٤] .

وكان طوال هذه المدة يتفطر حنيناً وشوقاً للوطن ، لذلك سرعان ما لبى دعوته ، فصفى متجره ، وعاد الى سورية في عام ١٩٥٥ ، مقررا أن يمضي فيها بقية حياته [١٥] . وأمضى فيها ، وفي البلاد العربية ، مدة ثلاث سنوات سائحاً ، ثم عاد الى الأرجنتين ، بعد أن فشل في تأمين حياته من عمله الادبي ، وبعد أن عاش فيها « حركة دائمة في قلب الأوساط الادبية : يخطب في النادي ، ويتكلم من الاذاعة ، ويواصل الصحف بخواطره السياسية والاجتماعية ويطبع مؤلفاته كتباً صغيرة بأسلوب برنارد شو في النقد والسخرية [١٦] » . وكانت حصيلة عمله الأدبي والصحفي والاذاعي في الوطن (رباعيات قنصل) شعرا ، وثلاث قصص ، واصدار مجلة (الفنون) ، التي صدر منها عددان ، ثم اضطر الى حجبها بعد عودته الى المهجر [١٧] .

امتازت الفترة التالية بعنايته بالأدب الاسباني ، وبالقائه المحاضرات وكتابته المقالات باللغة الاسبانية متحدثاً فيها عن القومية العربية ، والتاريخ العربي ، وجبران خليل جبران ، كما تشهد بذلك

---

(١٤) كما سجّل في احد اعداد مجلة (المناهل) التي سجلت ايضا الاحتفالات التي اقامتها الجالية في هذه المناسبة . تنظر مجلة المناهل ، العدد الثالث ، حزيران ١٩٣٧ .

(١٥) جورج صيدح (أدبنا وأدباؤنا) ص ٦٣١ ، ويسجل خطأ سنة عودته في عام ١٩٥٤ ، بينما هي ١٩٥٥ في جميع التعريفات .

(١٦) جورج صيدح ، المصدر نفسه ص ٦٣١ ، وسجل فيه خطأ أنه اقام في الوطن اربعة أعوام ، متوهما انه عاد في عام ١٩٥٤ .

(١٧) صدرت الرباعيات عام ١٩٥٦ ، ودولة المجانين وغالب أفندي وفلسفة حمار في عام ١٩٥٥ ، وهي قصص سنتحدث بالتفصيل عنها فيما بعد .

عناوين الكتب الاربعة التي نشرها بالاسبانية [١٨] . على أن عطاءه باللغة العربية لم يتوقف ، فسجلُّ كتبه المخطوطة طويل ، فيه دواوين شعر ورباعيات وأقاصيص وروايات ومقالات [١٩] ، وسجلُّ كتبه المطبوعة والمنشورة يقدم لنا ستة مؤلفات فيها ديوان شعر ، ومجموعة أقاصيص ومقالات ورواية ، وكتابان عن (أدب المغتربين) ، و (مأساة الحرف العربي في المهاجر الامريكية) ، أسهم اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، ووزارة الثقافة فيها بنشر ثلاثة منها [٢٠] .

كما امتازت هذه الفترة بزيارات أربع للوطن الأم قام بها في السنوات ١٩٧٦ ، و ١٩٧٨ ، و ١٩٧٩ ، ١٩٨٠ ، كما زار ليبيا في عام ١٩٧٦ ، والعراق في عام ١٩٧٩ مدعوا من حكومتيهما . وقد سجل أخوه كرم اهتمام وزارتي الاعلام والثقافة ومعهما اتحاد الكتاب العرب بأخيه الياس ، اذ استضافته وزارة الاعلام ، ويسرت له زيارة محافظات القطر ، كما انتخب عضوا في اتحاد الكتاب العرب ، وقام هذا الاتحاد بنشر كتابيه الاخيرين [٢١] ، قبل أن تخترمه المنون ، اثر عملية جراحية لم تنجح .

---

(١٨) التفصيلات هذه مما سجله أخوه كرم في تعريفه المشار اليه سابقا ، ومن عناوين كتبه ، في نهاية روايته (في مهب الريح) .

(١٩) تنظر قائمة كتبه المخطوطة المثبتة في نهاية كتبه (في مهب الريح) .

(٢٠) عناوينها في القائمة ، السابقة ، يضاف اليها رواية في مهب الريح المطبوعة في بيونس آيرس عام ١٩٧٢ ، وألحان الغروب ، ومأساة الحرف العربي) وكلاهما طبع في دمشق من قبل اتحاد الكتاب العرب في عام ١٩٧٨ و ١٩٨٠ .

(٢١) التفصيلات هذه من تعريف أخيه كرم المشار اليه ، وقد كان يلازمه في رحلاته الاخيرة ، وقد التقينا بهما في حلب مساء يوم ٢٩ آب ١٩٧٩ .

ونقرأ من رسالة لأخيه زكي أنه « في غمرة أحزانه منهمك في الرد على مئات الرسائل ، وفي تنسيق آثاره ما نشر منها وما لم ينشر [٢٢] »، وانها لمناسبة ندعو فيها اتحاد الكتاب العرب ، ووزارة الثقافة الى تبني مشروع نشر آثاره الكاملة ، فهو بنتاجه الادبي ، ونفسه العربي ، وحبه الوطن ، جدير بكل تكريم ، وأحسن ما يكرم به أديب بعد وفاته نشر مؤلفاته كاملة نشرا علمياً ، فما هو مطبوع منها قد أصبح في حكم المفقود ، وما هو مخطوط منها كثير وهام ، وجدير بأن يوضع في أيدي القراء ، لانه تخليدا لهذا الشاعر والاديب والصحفي العربي الكبير ، وهو أحد أدلة هذه الظاهرة ، ظاهرة الأدب المهجري ، التي أسميناها ذات يوم « معجزة في العصر الحديث » والتي أسهم معنا في تزكية هذه التسمية ومناقشتها أكثر من عشرة من أدباء المهجر والوطن العربي ، والتي كنا قد نشرناها في أعداد مجلة (المعرفة) الدمشقية لعام ١٩٦٦ [٢٣] .

---

(٢٢) من رسالة الى الاستاذ عبد الله يوركي حلاق ، مرسلة في ١٩٨١/٤/٣٠ ، من بوينس آيرس .

(٢٣) نشرنا مقالة بعنوان (الادب المهجري معجزة العروبة في العصر الحديث) واستفتينا كلا من المرحومين : فؤاد الشايب . ونظير زيتون وجورج صيدح والياس قنصل وشفيق معلوف ، والادباء السادة : ميخائيل نعيمة ومحمد عبد الغني حسن ورياض معلوف وعمر الدقاق وعبد الكريم الأشتر والشاعر القروي مد الله في أعمارهم ، طالبين اليهم تفسيرا لهذه المعجزة ، وقد نشرت مجلة المعرفة أجوبتهم خلال عام ١٩٦٦.

آثاره

سجل جورج صيدح في الفصل الذي عقده لالياس قنصل من كتابه (أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الامريكية) أنه « أخصب أديب عربي من أدباء المهجر الجنوبي [٢٤] » والناظر في قائمة (مؤلفات الياس قنصل المخطوطة) وقائمة (كتب الياس قنصل المطبوعة [٢٥] يلاحظ ما يلي :

١ ــ عدد آثاره المخطوطة المسجلة حتى عام صدور رواية (في مهب الريح) ثلاثة وعشرون مؤلفا ، بينها دواوين شعر ، ومجموعة مقالات ، ومجموعات أقاصيص ، ورباعيات وقصص ، أما عدد آثاره المطبوعة حتى عام ١٩٧٢ فهو ثمانية عشر كتاباً أنواعها الأدبية مثل أنواع القائمة الأولى ، ففيها الشعر والمقالة والقصة والأقصوصة والدراسة الأدبية .

٢ ــ يضاف الى هذه الآثار المطبوعة ثلاثة مؤلفات صدرت في أعوام ١٩٧٢ و ١٩٧٨ و ١٩٨٠ ، وكنا قد أشرنا اليها فيما تقدم من هذا البحث ، وهي رواية وديوان شعر ودراسة أدبية .

٣ ــ هذه الآثار السابقة المخطوط منها والمطبوع باللغة العربية . وقد سجلت في نهاية قائمة آثاره المخطوطة أسماء ثلاثة كتب باللغة الاسبانية عناوينها كما يلي : انبعاث العروبة Resuryimienta del Arabisme وشخصيات تاريخية عربية Personalidadas Hirtoricas Arabes وموجز التاريخ العربي Pequefia Historia Arabe . وقد نشر

---

(٢٤) جورج صيدح ، المصدر السابق ص ٦٢٦

(٢٥) كلتا القائمتين ملحقة بروايته (في مهب الريح) ص ٢١٤ و ٢١٥

بعدها كتابه عن (جبران : حياته وأدبه) باللغة الاسبانية ، وهو الكتاب الذي لقي « رواجا كبيرا في السنة الاولى من صدوره [٢٦] » .

٤ ـ تنم هذه الآثار ، عن موهبة متنوعة ، ففيها كما قلنا : الشعر والرباعيات والأقصوصة والقصة والرواية والمقالة والدراسة الأدبية والمذكرات .

٥ ـ ان قائمة آثاره المخطوطة التي أشرنا اليها في الفقرة الثالثة لا تمثل جميع ما أنتج الياس قنصل ، ولم تتح له طباعته . ففي صحف المهجر والوطن ومجلاتها آلاف المقالات التي كتبها ونشرها خلال خمسين عاما ، وهي الآثار التي يحاول أخوه زكي أن يجمعها ويدفعها للطباعة تنفيذا لوعد قطعه لأخيه الراحل من جهة ، ولوصية عهد اليه بتنفيذها من جهة ثانية [٢٧] . وانا لنأمل أن نراها ، هي وبقية آثاره القديمة المطبوعة والتي أصبحت نادرة ، أوليس لها وجود حتى لدى مؤلفها .

٦ ـ نسجل هاتين القائمتين هنا ، مع تعريف بمضمونها :

آ ـ **المخطوطة :**

في مدار الزمن (مجموعة أقاصيص) ـ أحلام (قصة) ـ أوراق مبعثرة (كلمات متفرقة في ثلاثة أجزاء) ـ الوثيقة المزورة (قصة) رباعيات قنصل (شعر ، في ثلاثة اجزاء) ـ مذكرات مسافر (نثر) ـ منذ عشرين سنة (مقالات) ـ بين معارك الثورة (قصة) ـ أكاذيب صادقة (أقاصيص) ـ هذا أنا (قصة حياة) ـ نساء (مجموعة أقاصيص) ـ الكواسد (مجموعة مقالات) ـ تاريخ الأدب المهجري

---

(٢٦) من لقاء مع الياس قنصل منشور في مجلة الفداء التي تصدر في كراكاس باللغتين العربية والاسبانية ، عدد آب ـ كانون الاول ١٩٨٠ .

(٢٧) من رسالة زكي قنصل المشار اليها سابقا .

(دراسات أدبية) ـ من زوايا النسيان (مجموعة مقالات) ـ العبقري المجنون (قصة) .

ب ـ المطبوعة :

الأسلاك الشائكة (شعر ١٩٣١) ـ السهام (شعر ١٩٣٥) ، ـ صديقي أبو حسن (قصة ١٩٣٧) ـ على ضفاف بردى (رواية ١٩٣٨) ـ في سبيل الحرية (قصة ١٩٣٩) ـ بسمات الفجر (شعر ١٩٤٠) ـ لصوص الشرف (قصة ١٩٤١) ـ دولة المجانين (قصة ١٩٥٥) ـ غالب أفندي المغلوب (قصة ١٩٥٥) ـ فلسفة حمار (قصة ١٩٥٥) ـ رباعيات قنصل (شعر ١٩٥٦) ـ أدب المغتربين (دراسات أدبية ١٩٦٢) ـ من مناهل الحياة (أقاصيص ١٩٦٧) ـ هنا وهناك (مجموعة مقالات ١٩٦٩) . يضاف اليها رواية (في مهب الريح) المنشورة في عام ١٩٧٢ ، وديوان (ألحان الغروب) المطبوع في عام ١٩٧٨ ، و (مأساة الحرف العربي في المهاجر الامريكية) (دراسة منشورة في عام ١٩٨٠) .

٧ ـ جميع هذه الآثار منشورة في الأرجنتين ، ما عدا تسعة : سبعة منها منشورة في دمشق ، وواحد في بغداد ، وآخر في تونس .

* * *

الياس قنصل الصحفي

والحديث عن الياس قنصل يبقى ناقصا اذا لم نشر الى عمله في الصحافة • ان علاقته بها قد استمرت طوال حياته ، بدأت منذ وقت مبكر ، حين أخذ ينشر قصائد ومقالات في مجلات المهجر وصحفه ، ثم قويت هذه العلاقة حين غدا محررا في (الجريدة السورية اللبنانية) ، ثم رئيسا لتحريرها مدة عشر سنوات ، وغدت أكثر قوة حين انفرد بنفسه باصدار مجلة (المناهل) الشهرية التي كان يحررها بالتعاون مع أخيه ، والتي انشئت في نيسان من عام ١٩٣٧ ، واستمرت ثلاثة أعوام ، واحتجبت مع بدء الحرب العالمية الثانية •

مجلة (المناهل) هذه مجلة مهجرية عربية اتخذت لنفسها شعارا وهدفاً هو (خدمة الوطن والأدب والفن والاجتماع [٢٨]) • وقد أتيح لنا — لحسن الحظ — أن نطلع على ستة أعداد منها في مكتبة الصديق الاستاذ عبد الله يوركي حلاق ، ثلاثة منها صدرت في عام ١٩٣٧ ، وثلاثة صدرت في عام ١٩٣٨ ، فتمكنا أن نأخذ منها فكرة عن مضمونها وشكلها •

غلاف المجلة من الورق الصقيل اللماع ، صفحته الاولى محلاة بصورة بالألوان ، وصفحته الاخيرة بصورة أخرى • هذه الصور تختار لغرض قومي ، فهي تمثل آثارا عربية قديمة ، أو مدينة من مدن الوطن العربي : فصورة تمثل حماه ، وأخرى مدينة انطاكية ، وثالثة آثار العرب

---

(٢٨) يتصدر هذا الشعار المجلة تحت اسمها في كل عدد .

في الأندلس ، كما حلي كل عدد بصور لابطال الثورة السورية ، ولزعماء العرب ، وشعرائهم وكتابهم ومناضليهم كسلطان باشا الأطرش ، وأحمد مريود ، وفوزي الغزي ، وابراهيم هنانو ، وشكيب أرسلان ، وميخائيل نعيمة ، وحافظ ابراهيم ، وأحمد شوقي ، وجبران خليل جبران .

يفتتح كل عدد بمقالة يكتبها الياس قنصل من وحي أحداث الشهر ، وفيه مقالة له ، وقصة ، ورواية مسلسلة ، وقد ينشر فيها قصيدة له ، أو لأخيه زكي ، اضافة الى قصائد أخرى لشعراء من المهجر أو الوطن . وفي كل عدد بابان ثابتان يخصص أولهما للحركة الأدبية في العالم العربي يكتبه من يسمى (مكاتب المجلة في دمشق) ، وثانيهما عن الحركة الفنية في العالم العربي يكتبه من يدعى (مكاتب المجلة في القاهرة) .

وفي المجلة مقالات أدبية ودراسات وقصص لأدباء من مختلف أنحاء الوطن العربي ، ففيها نقرأ لحبيب اسطفان ، وايليا أبي ماضي ، وحافظ ابراهيم ، وحسين شوقي ، وتوفيق يوسف عواد ، ومحمود تيمور ، وعقل الجر ، وميخائيل نعيمه ، وأمين الريحاني ، والياس أبي شبكة . كما أن فيها تعريفا بالكتب الصادرة حديثا في الوطن العربي ، كديوان الأمير شكيب أرسلان ، وكتاب ذكرى أبي الطيب لعبدالوهاب عزام ، وقصة الوثبة الاولى لمحمود تيمور ، ومع المتنبي لطه حسين .

وفي هذا المجلد الأول رواية لالياس قنصل بعنوان (على ضفاف بردى) منشورة بصورة مسلسلة على أعداد كثيرة (٢٩) ، وهي رواية غرضها عرض أحداث النضال في سورية ضد الفرنسيين في سنة ١٩٣٦ بقالب قصصي . واذا كانت هذه الرواية تعوزها الحبكة ، ويبعد عنها الفن القصصي ، فان في اسلوبها الشيء الكثير من الجمال والحياة ،

---

(٢٩) جمعت وطبعت بعد ذلك في كتاب عام ١٩٣٨ ، وكانت قد نشرت بدءا من العدد الثالث من المجلة الصادر في حزيران عام ١٩٣٧ .

وفي رواية أحداثها الكثير من الصدق الذي يقربها من الواقعية • نختار منها هذين المقطعين ، ففيهما الدليل على ما نقول :

« وتأهبت دمشق في يوم السبت ، وهو اليـوم التالي لتشييع جثمان الشهيد ، فحيثما أدرت الطرف رأيت سكونا يدل على الحنق الذي يغمر النفوس للمآتي المستنكرة التي تقوم بها السلطة الفرنسوية خنقا لصوت الشعب المطالب بالحق والحرية •• تأهبت دمشق لتشييع جثمان الشهيد الذي سقط برصاص الجند في المظاهرة ، وكأن الشام تكرم في روح شهيدها هذا أرواح جميـع شهدائهـا •

ولم تكد الساعة تعلن الظهر ، حتى كان حي القزازين غاصا بألوف الناس ، وفي طليعتهم أعضاء الكتلة الوطنية والطـلاب رفاق الشهيد • وحملوا جثمانه على الأكف ، وساروا به الى الجامع الأموي للصلاة عليـه ، وكان الـذين لم يتسن لهم رؤية الشهيد في داره قـد سبقوا المشيعين الى الجامع فامتلأ بهم على رحبه ، وماجت الشوارع جواره بهم [٣٠] ••• »

وهذا المقطع في تصوير اضراب عام ١٩٣٦ الذي استمر أكثر من ستين يوما : « انقضت ستون يومـاً على دمشق وهي على حالها •• اعتصاب شامل ، ومظاهرات تتوالى ، واعتقالات لا حد لهـا ، وظلم ينزله رجال السلطة بالأهلين ، وارهاق يبديه الموظفون بالمسجونين ••• انقضت على دمشق هذه الأيام فلم يزدد الأهلـون الا حماسة وغيرة واندفاعا ، سيان في ذلك الشيوخ الذين أحنت السنـون ظهورهم ، والشباب الذين يرتكز عليهم مستقبل الأمة ، والصبيان الذين لماتدغدغ نفوسهم أعاصير الحياة العنيفة [٣١] »

---

(٣٠) ص ٦٠ من العدد التاسع الصادر في كانون الاول ١٩٣٧ .

(٣١) ص ٦٤ من العدد التاسع الصادر في كانون الاول ١٩٣٧

وواضح ما في هذين المقطعين من رومانسية وخطابية تبعدانهما عن الفن القصصي ، ولكن فيهما تصويرا جميلا ، وأسلوبا شيقا ، وفيهما قرب مما جرى في الواقع ، قرب دفع المرحوم الفنان فخري البارودي الى أن يكتب قائلا : « لشد ما يعجبني فيك يا الياس ، وفي روايتك (على ضفاف بردى) أنك قدرت على تصوير الوقائع والحوادث التي لم تصل اليكم الا قليلا ، فكيف لو كنت بيننا وشاهدتها بعينك ؟ اذا لكتبت مالا يقدر على كتابته غيرك [٣٢] » .

على أن تعلق الياس قنصل بالصحافة لم ينته مع حجب مجلة (المناهل) بعد سنوات ثلاث من ظهورها ، فلقد واصل نشر شعره ومقالاته في مختلف المجلات والصحف (كالسائح والسمير والشرق والمواهب والعالم العربي والقلم الجديد والديار والاديب وغيرها[٣٣]) ، كذلك أسهم مع زملائه في (الرابطة الأدبية) التي تأسست في بوينس آيرس عام ١٩٤٩ لجمع شمل الأدباء في الأرجنتين ، وضمت الكثيرين منهم وان لم تجمعهم جميعا [٣٤] .. أسهم مع زملائه في الرابطة في مد « الصحف اليومية بما كان يملأ صفحاتها [٣٥] » بالشعر والنثر والطرائف والأخبار الأدبية والمباسطات والمعارضات .

كذلك حاول عندما كان في الوطن ، وبعد أن سدت في وجهه أبواب الرزق ، أن يعمل في الصحافة ، فأصدر في دمشق مجلة (الفنون)

---

(٣٢) ص ٦٤ من العدد التاسع الصادر في كانون الاول ١٩٣٧

(٣٣) عيسى الناعوري ، ادب المهجر ص ٥٩١ ، والكتاب طبع دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٥٩ .

(٣٤) لمعرفة التفاصيل عن (الرابطة الادبية) يراجع كتاب جورج صيدح (أدبنا وأدباؤنا) ص ٦١٥ و ٦١٦ و ٦١٧ ، حيث أرخ لها بالتفصيل ، وأعطانا تفصيلات لأنها كانت تجتمع في بيته . ينظر كذلك ما كتبه عنها الياس قنصل في كتابه (أدب المغتربين) ص ٤٩ ـ ٥٧ .

(٣٥) جورج صيدح المصدر السابق ص ٦١٦

التي اضطر الى حجبها بسرعة بسبب عودته الى المهجر [٣٦] . وهناك ثابر على نشر ما تجود به قريحته من شعر ، وما يجود به قلمه من نثر ، في مختلف الصحف والمجلات، مضيفاً الى ذلك، أنه أخذ يلقي المحاضرات وينشر المقـالات ، ويؤلف الكتب باللغة الاسبانية ، متحدثا فيهـا عن العروبة ، والاعلام العرب في الماضي والحاضر ، ومقدما بالاسبانية تاريخا موجزاً للعرب ، ودراسة عن حياة جبران خليل جبران وأدبه [٣٧] .

* * *

(٣٦) بيان المؤلف عن حياته واعماله في ص ٢١٣ من رواية (في مهب الريح) ويذكر أخوه كرم في رسالته المشار اليها سابقا ، ان اخاه الياس لم يصدر من المجلة سوى عددين .

(٣٧) الملحق برواية (في مهب الريح) ص ٢١٤ ، ورسالة زكي قنصل المشار اليها سابقا .

الياس قنصل الصديق

ترجع معرفتي بالياس قنصل الى أكثر من أربعين عاما ، الى سنة ١٩٣٨ على وجه الدقة ، حين روى لنا استاذ اللغة العربية في المرحلة الابتدائية أبياتا له يحن فيها الى الوطن ، ويتغنى بجمال سوريا وجهاد أبطالها فيمقارعة المستعمر الفرنسي ••• تلكم الابيات التي نسيتها لطول الزمن ، ثم عثرت عليها وأنا احضر لهذا البحث ، وهأنذا أروي بعضها :

أبعد ربوع رصع المجد أرضها　　ترى لذة للعيش في موطن ثان
وهل بعد سوريا تروق لشاعر　　بلاد ، وان كانت كجنة رضوان ؟
وأحلامه مرت هناك فخلفت　　له من حنايا القلب نبضة رضوان
يعوذ متى جن الظلام بشعره　　يسر اليه همه دون كتمان
فللشعر نجواه اذا الحزن حفه　　وفي الشعرمن أحزانه بعض سلوان
بلاد حباها الله لطفا ورونقا　　فجرت ذيول الفخر في كل ميدان
سل الدهر عنها فهو ينبيك أنها　　سمت بمعاليها الى متن كيوان
ولا عرفت غير الاباء سجية　　ولا سكنت يوما لظلم وعدوان
فما طأطأت للفاتحين جبينها　　ولا خفضت هام الخنوع لانسان
فوارسها مشهورة بثباتها　　متى كل عن طعن القنا كل مطعان
كما فعلت في ميسلون أماجد　　أعادت مواضيها مواضي عدنان

ونسيت الياس قنصل وأبياته في جملة ماينسى الانسان حين يمر زمن طويل ، لاسيما وان الابيات قد رويت امامنا مرة واحدة ، ولكن

أثرها بقي في اللاشعور مختزنا مع اسم صاحبها ، حتى عاد الى ساحة الشعور لدن سماعي ، من اذاعة دمشق ، في مساء يوم من أيام عام ١٩٥٥ ، كلمة قومية رائعة في تحية الوطن ، قال المذيع في نهايتها انها للشاعر الياس قنصل العائد من مهجره ، وهي بعنوان (ماأكرمك أيها الوطن) .

فتشت في اليوم التالي جميع الصحف الدمشقية علي أجد فيها تلك الكلمة ، فلم أوفق في مسعاي ، واتنقلت الكلمة أيضا الى الذاكرة ، تختزن منها جمالها وعنوانها واسم صاحبها .

ولما ارتبطت بأدب المهجر ، شعره ونثره ، بدءا من عام ١٩٥٩ ، بعد ان اطلعت على كتاب جورج صيدح (أدبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية) وعولت على تأليف كتاب في موضوعي الحنين الى الوطن ولقائه في الشعر المهجري كتبت رسالة الى الياس قنصل، أطلب فيها منه ان يرسل الي مالديه من شعر الحنين ، وما أوحى اليه لقاؤه الوطن في عام ١٩٥٥ من شعر . ولم يتأخر في ارسال جواب لطيف ، شفعه بقصيدة طويلة كان قد القاها تحية للوطن بعد ايابه اليه ، ومعها الكلمة التي القاها من اذاعة دمشق ،وهي الكلمة نفسها التي كنت قد استمعت اليها منذ أربعة أعوام ، واعجبت بها وفتشت عبثا عنها .

سعدت بتلك الرسالة التي عقدت صداقة مع شاعر وكاتب كبير ولان القصيدة كانت مادة الفصل الذي خصصتها به في كتابي (الحنين واللقاء في شعر المهجر) بعنوان (الياس قنصل في الوطن الكريم (٣٨) والتي كانت غزلا ، وبيانا لحاله البائس في المهجر ، واشادة بالعبقرية والنبوغ والشعر والالهام :

---

(٣٨) كتابنا (الحنين واللقاء في شعر المهجر) طبع في حلب عام ١٩٦١، والفصل ذاك ص٧٦ الى ص ٨١ منه .

العبقري رسالة علوية أوما عرفت عجائب الاقلام ؟
يسدي النبوغ الى الحجارة رفده فاذا بها روح بدون كلام
ما الورد لولا الشعر غير فسيله بالنور مثقلة وبالاكمام
والارض من صنع الخليقة شرها أما السما فوليدة الالهام

ثم بيان لسعادته بعودته الى الوطن وبكاؤه بلقائه وتمجيد لترابه المقدس الذي يضم رفات الاجداد الذين نشروا خير العلوم وقدموا أنبل الاعلام ، والذين أبدعوا بجودهم وحلمهم دنياتميس بكل ما هو سام وكانت خاتمة القصيدة اشادة عظيمة بالوطن ، وأمنية لم تتحقق بأن يمضي بقية الحياة فيه :

وطني ولو نحتوا بهاك وانصفوا ماكان يعذل عابد الاصنام
في كل شبر من ترابك معرض للفضل والعزمات والاقدام
أملي ، وقد شاهدت بندك سيدا بالحق ، أن يطوي ثراك عظامي

أما الكلمة النثرية ، فقد نقلتها في الصفحات الاخيرة من الكتاب (٣٩) ، نقلتها دون تعليق ، لانها ، لم تكن بحاجة اليه ، فهي تميس في حلة قشيبة من صور فاتنة ، وكلمات تنحدر كالشلال ، ملائمة كل الملاءمة للغرض معبرة عن عواطف من حب الوطن ، والتغني بجماله ، والاشادة بأمجاده ، وبأمجاد العرب في الماضي والحاضر .

واذا كانت قصيدة لقاء الوطن التي اشرنا اليها منذ قليل قد نشرت في ديوان الشاعر (ألحان الغروب) (٤٠) فان كلمة (ما أكرمك أيها

---

(٣٩) كتابنا المشار اليه سابقا من ص ١٠٠ الى ص ١٠٣ .

(٤٠) ألحان الغروب ، نشر اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ١٩٧٨ ص ٩

الوطن) لم تنشر الا في كتابنا (الحنين واللقاء في شعر المهجر) ، ولم يتح المكثيرين أن يطالعوا عليها ، خاصة وان الكتاب قد نفد منذ زمن طويل ولم يعد بالامكان اقتناؤه ، لذلك نقوم هنا بنقلها كاملة لاهميتها من وجهتي النظر الادبية والقوميـــة ، وحتى يطلع عليها اكبر عدد من القراء بعد قراءتهم هذا البحث •

« في مكنة الكلمات أن تؤلف عبارة تمور بحبكة من الجمال الزاهي تجري على نهج من البلاغة الساخرة ، ولكن اللغة برمتها عاجزة عن وصف ما يختلج في فؤاد العائد الى وطنه من عواطف تملأ هنيهة لاتدخل في حساب الزمن لانها أعظم منه ، ومن نوازع تتدافع متشابكة ، فيها شكل من الانطلاق الروحي ، هو للـــدهر تحد ، وبالمقادير استخفاف •

ولايستطيع البيان ، وان بلغ ذروة الابداع ، ان يحدد عبير الزهر ، وان حدد الوانه • وليس في وسع العاشق من جلاء نشوته غير التنويـــه بالظـــلال •

ثلاثون سنة مرت علي ، وأنا بعيد لم أقدم فيها للوطن غير الحنين يعتمر قصائد ومقالات ، قيمتها الوحيدة انها صادقة الشعور ، وأجرها قيامها بسهمتها في تركيز النفس العربي في العالم الجديد •

فان سأل سائل ، وماكانت مثوبة الوطن ، وقد عدت اليه ، بعدهذه القبضة من الاعـــوام ؟

اجبت :

ان الـــوطن أهدى الي :

عزة قومية سرت في مخابىء روحي وأنا أطأ أرض سورية • فاذا بي وكأني أتصرف بدنيا طريفة لاعهـــد للناس بها ، ولم أكن قبل ذلك سوى رقعة بالية يختلف عنها نسيجا ولونا •

الى الوطـن أهـدي الي :

تراثنا خالـدا أفرد له التاريخ انصع القمم ، فتوزعت اشعته بين الشرق والغرب ، وأنات النفوس بعلم ينفع ولا يؤذي ، ورفعت حسها بأدب هو سمة شرف للعالمين .

ان الـوطن أهدى الي :

صفحات بهية من عدالة اجتماعية أبدعت مـن الاندلس جنة لـم تتمكن أوربا ـ رغم حديدها ـ من أن تشيد مايماثلها فتنة وجمالا او يدانيها روعة وكمالا .

ان الـوطن أهدى الي :

ميسلون هي طغراء في سجل السؤدد ، أثبتت للورى أن المغاوير الذين اختاروا الثواء في تلك البقعـة يجري في عروقهم دم الأبطـال القدامى الذين بيضوا وجه الانسـانية بما أداروا من معارك كانت ارابة الحق نصرا .

ان الوطن أهدى الي :

حق الاعتـزاز بجيش لم تعـرف سيوفـه الاندحار ولن تعرف : نسوره تفرش أجنحتها في كل سماء . وهو الأمل الذي تجهزه العروبة ، حماية لسيادتها ، وتوطيدا لاستقلالها ، ودعما لمبادىء تعود على العالم طمأنينة وسلامـا .

ان الوطن أهدى الي :

ظمأ لافحا بثأر سينبثق من معركـة فاصلة ترجـع ما سلبته أيدي النفاق والكذب في غفلة منا ، وتطرح شذاذ الآفاق المتاجرين بأعراضهم، الذين حقت عليهم الضلالة ، الى حيث لايجدي ندم ولا تنفـع ضراعة .

ان الوطن أهدى الي :

علماً يخفق في حلة العز ، أنقل عيني بين ألوانه ، فأشعر أن الفضاء، على رحبه ، أضيق من أن يسع كبريائي ، وهل تلام كبرياء ترتكز على دنيا مـن فتوحـات ؟!

ان الوطن أهدى الي :

حرية تحمل في سبيلهـا المكافحـون ما يكـاد يدخـل في طور الأساطير ، ونحر على عرفاتها المجاهدون أضاحي من شباب الى العلا وثاب ، وعزائم من الصوان منحوتة •

فما أكرمك أيها الوطن العزيز •

ان كنوز الأرض كلها لاتساوي ما خامرني من هزة ، وقد بدت لبصري جبالك التي ارتدت عنها قوى المستعمرين منكسرة ، لأن وراءها جبالا من ارادة لا تلين •

ان الدموع التي سكبتها أمي ، وهي تضمني الى صدرها ، قد مسحت ما أقام الدهر في وجهي من متاعب ، وأنستني ما كابدت مـن كوارث ، ولم تكن تلك الدموع تحنان أم واحدة الى ابنها القادم مـن المغترب ، وانما اختصر فيها تحنان جميع الامهات اللواتي يرقبن عودة الأبنـــاء •

ما أكرمك أيها الوطن العزيز !

تمنحني هذه النعم التي لم أكن أحلم بها بعد ثلاثين عاما لم تجن فيها من ثمرات نشاطي الا ما عهدت من عواطف ومشاعر ، وتخبىء لي ما فيك من سؤدد • ولا أكاد أطل عليك حتى أرى أمجادك بين يدي كاني صرفت عمري دفاعاً عنك ، وقضيت شبابي مجاهدا مناضلا •

فما أعظمك يا وطني وما أكرمك ! » •

وتتالت الرسائل بين الياس قنصل وبيني ، وكانت هذه الرسائل تزيد صداقتنا عمقا ، ولا سيما أن وجهات نظرينا كانت تلتقي دائماً ، سواء أكان ذلك في المجال الأدبي أم في المجال القومي •• زاد صداقتنا هذه عمقا ومثالة صدور كتابي (العروبة في شعر المهجر [٨١]) الذي نال رضاه ، والذي أرسل الي بعد قراءته رسالة تفيض بآيات الود والحب ، وتثني على الكتاب أجمل الثناء •

كنت ، خلال هذه السنوات العشرين التي تلت أول اتصال لي بالياس قنصل ، آمل أن أسعد بلقائه ، ولم يتيسر لي ذلك الا في آب من عام ١٩٧٩ ، حين زار الوطن للمرة الثالثة ، ومكث فيه مدة ، زار خلالها مدينة حلب ، حيث سعدنا بلقائه كل السعادة ، وحيث قضينا ساعات جميلة ، تناولنا فيها شتى أنواع الحديث •

كان ذلكم اللقاء ، ويا للأسف ، الأول والأخير ، لأن الياس قنصل غادرنا للقاء ربه قبل أن نلتقي مرة ثانية ، كما وعد ، وقبل أن تنقضي سنتان على ذلكم اللقاء ، الذي زادني معرفة به ، واكباراً لمزاياه الخلقية والأدبية •

* * *

---

(٤١) صدر عن مكتبة راس بيروت ، بيروت عام ١٩٦٥

القسم الثاني

الياس قنصل الشاعر

الياس قنصل الشاعر

- ١ -

سجل كرم قنصل [٤٢] أن أخويه الياس وزكي درسا المرحلة الابتدائية على يد استاذ اسمه ناصر ، وأنه كان يعلمهما العروض ، اضافة الى بقية المواد ، لأنه لمس لديهما « تفتحاً للشاعرية [٤٢] » لذلك كان يمرنهما على نظم الشعر منذ كانا طفلين صغيرين .

وكان ذلك المعلم على حق ، فسرعان ما تفتحت موهبة الشاعرين في المهجر ، على الرغم من سنهما المبكرة ، ومما كانا يعانيانه هناك طلبا للقمة العيش . ولا بد أن الياس قد بدأ ينظم الشعر منذ بلغ الخامسة عشرة ، لأننا نجده ينشر ، وسنه لم تتجاوز سبعة عشر ربيعا ، ثلاثة دواوين هي (على مذبح الوطنية ، والاسلاك الشائكة ، والعبرات المتلهبة) ، مما يبشر بأنه « سيكون له شأن عظيم في عالم الأدب ، وسيسطع كوكباً وضاء في سماء العربية ، وسيصبح حلقة ذات أهمية في سلسلة كبار المفكرين والشعراء [٤٣] . »

وقد صدقت هذه النبوءة الى حد كبير ، فهاهوذا الياس قنصل يغادرنا بعد أن قضى حياة خصبة ، مليئة بالنشاط الأدبي ، وها هو ذا تناجه قد قارب الخمسين مؤلفاً بين شعر وقصة ورواية ومقالة ودراسة.

---

(٤٢) من رسالته المشار اليها سابقا .

(٤٣) من مقدمة موسى يوسف عزيزة ، صاحب (الجريدة السورية اللبنانية) لديوان الشاعر الاول (على مذبح الوطنية) ص ٦ ، من الطبعة الاولى عام ١٩٣١ .

- ٢ -

وتتالت بعد هذا دواوين الشاعر :السهامفي عام ١٩٣٥ ، بسمات الفجر في عــام ١٩٤٠ ، ورباعيات قنصل عام ١٩٥٦ ، ألحان الغــروب ١٩٧٨ ، وتضم لائحة آثاره المخطوطة : رباعياتــه في ثلاثة أجــزاء (٤٤) وتتمة ديوانه بسمات الفجر في جزأين .

ديوانه الاول (على مذبح الوطنية) قصره على الشعر الوطني والقومي ، ويكاد يكون كله في التغني ببطولات الثــورة الســورية عام ١٩٢٥ ، وبنضال الشعب العربي في سورية ابان مقارعة الاستعمار الفرنسي ، وباستنكار حريق دمشق ابان تلك الثورة ، وبالحنين الى الوطن ووصف مغانيه ، وفيه قصيدة تشيد بنضال الشعــب الليبي ضد الاستعمــار الايطالي .

ومثله ديوان (السهام) المطبوع ثلاث مرات في عام ١٩٣٥ ، فهو يضم الموضوعات السابقة يضاف اليها قصيدة في عيد الفطر (٤٥) ، وفيها اشادة بالرسول العربي (ص) ، وأخرى في الدعــوة الــى الوحــدة والجهاد (٤٦) ، وثالثة في رسالة المهجر الى الوطن ، ورابعــة في (تحية مصر) (٤٧) ، فهي والشام لؤلؤتان في عقد العروبة :

قطران في عقد العروبة برزا   أرض الشآم وموطن الأهرام

وخامسة في رثاء الملك فيصل (٤٨) ، وسادسة ببطولات سلطــان باشا الاطرش (٤٩) ، وسابعة في ذكرى استقلال الأرجنتين (٥٠) ، وثامنة في شهيد ميسلون (٥١) .

---

(٤٤) في مهب الريح ص ٢١٤
(٤٥) السهام ، الطبعة الثالثة عام ١٩٣٥ ، ص ٢٥ .
(٤٦) قصيدة أيها العرب ص ٣٧ .
(٤٧) ص ٣٧ .
(٤٨) ص ٥٢ .
(٤٩) ص ٥٠ .
(٥٠) ص ٧١
(٥١) ص ٧٨ .

وتشغل القصائد القومية من ديـوانه الأخير (ألحان الغروب) الذي هو مختـارات من شعره في أغراض شتى ، وعلى مدى أربعين عاما ... تشغل هذه القصائد ، أكثر من نصف الديوان ، وبينها أربع قصائد في لقاء الوطن في عامي ١٩٥٥ و ١٩٧٦ (٥٣) ، واثنتان في الحنين اليه (٥٤) ، وقصيدة في حرب تشرين التحريرية (٥٥) ، ومطولة في شهيد ميسلون بمناسبة مرور خمسين عاماً على استشهاده (٥٦) ، وأخرى في النبي العربي الكريم (٥٧) .

كذلك خصص اثنتي عشرة رباعية من رباعيـاته التي نشرها في كتاب عام ١٩٥٦ (٥٨) ، وفيها حديث عن فلسطين ، وعمن أضاعوها ، وعن لغة العرب ، ووحدتهم ، والحنين الى الوطن .

- ٣ -

ولعل الناس قد أحسوا بما في شعره هذا من وحدة ومن التزام بقضايا الامة العربية ، فبعضهم استحسن ذلك ، وبعضهم الآخر استنكره مدعياً أن ذلك ليس من الشعر ، وأن على الشاعر أن يكون حرا في نظمه ، فخصص (تصدير) ديوانه السهـام للـرد عليهم ، فرأى أن لا حرية للشعر مع عبودية الوطن . « وعليه فان من تقيـدت بلاده

---

(٥٣) قصيدة (سـراب) ص ٩ ، وخصاص البـاب ص ٦٤ ، وفي الوطن من جديد ص ٧٩ ، وتحية الى دمشق ص ٨١ .

(٥٤) شاعر في مدينة ص ٢٧ ، وحرقة البعد ص ٣٤ .

(٥٥) قصيدة (ياحرب تشرين) ص ٨٣ .

(٥٦) قصيدة (ياشهيد ميسلون) من ص ٩٠ الى ص ٩٧ .

(٥٧) قصيدة النبي العربي الكريم ، من ص ٩٨ الى ص ١٠٤ .

(٥٨) الرباعيات ص ٦ و ١٦ و ٢٤ و ٥٠ و ٥٨ و ٦١ و ٧٩ و ٨٨ و ١٠٠ و ١١٢ و ١٢٠ و ١٥٠

بالسلسلة ليس حراً ، وهو بعض منها • ومن لم يكن حراً فلن تتفتق نفسه عن شعر حر ، فسعينا لاستقلال بلادنا سعي لحرية شعرنا[٥٩] • »

ولعلهم قالوا له : ان (سهامه) ستموت غدا ، فأجابهم بصوت حازم « ان نيل الخلود لم يكن غايتي من اطلاق هذه السهام ، بل وضع آجر في أساس القومية • وسواء لدي بعد هذا أعرف الناس اسمي أم جهلوه ، ما دمت أقوم بما أشعر أنه واجب علي [٦٠] • »

وقد عاد بعد حوالي ثلاثين عاما الى هذه القضية فخص أدب المهجر الشمالي بفصل من كتابه (أدب المغتربين) جعل له عنوان (أدب الشمال [٦١] ، فوسمه بسمة طلب الحرية في الأدب ، وفي الحياة العامة ، فالحرية ، هي التي وجهت أدب مغتربي الشمال في سائر المسالك ، وهي التي سيطرت على بنات أفكارهم سيطرة تجلت في معظم آثارهم [٦٢])•

ثم خص (أدب الجنوب) بالفصل الذي تلاه [٦٣] فلاحظ أن « النزعة الحماسية هي الشارة التي امتاز بها أدب المغتربين في الجنوب ، فهو يتناول الموضوعات الوطنية وجها لوجه ، ويعالجها معالجة عاطفية، قد تكون في كثير من الاحيان أصدق من الدواء العقلي لها [٦٤]• » وبينما كان أدب الشمال يطالب بالحرية للعرب على أنها حق من حقوق الامة ، يتمسك أدب الجنوب بالحق نفسه مضيفاً اليه غضبته على الذين اغتصبوها ، مفنداً مزاعمهم الباطلة ، مبينا منكراتهم في كل الاقطار العربية التي حلوا فيها [٦٤] •

---

(٥٩) مقدمة السهام ص ١٠ •

(٦٠) المصدر السابق ص ١٠ •

(٦١) ادب المغتربين نشرته وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٦٣ ، والفصل من ص٥٨ الى ص٦٦ •

(٦٢) ادب المغتربين ص ٥٩ •

(٦٣) ادب المغتربين من ٦٩ الى ص ٧٤ •

(٦٤) ادب المغتربين ص ٦٧ •

ومضى يوازن بين الاديبين مبينا ماقدمه الادباء والشعراء والصحفيون في المهجر الجنوبي من أدب ومقالات صحفية كانت صدى لما يجري في الوطن حينا ، وتنبيها واستنهاضا للهمم حينا آخر [٦٥] فلقد رافقوا احداث الوطن العربي كله ، منذ ثوراته ضد المستعمرين في العشرينات والثلاثينات ، حتى حرب تشرين التحريرية في السبعينات ، مرورا بنكبة فلسطين فيما بينهما ، فكان الأدب القومي في المهجر يوازي الادب القومي في الوطن «لا في الكمية فحسب ، بل وبالجودة والجمال» وهضم مفاهيم المعاني التي انجلت عنها تلك الموجة القومية البارزة [٦٥] وسنرى مصداقا لذلك حين نستعرض موضوعات الشعر الذي أنشده الياس قنصل على امتداد نصف قرن، ذلك الشعر القومي الذي ابتدأ مع ديوان الشاعر الاول (على مذبح الوطنية) ولم ينته الا عندما أغمض الشاعر عينيه ، مودعا هذه الحياة الدنيا ، ومنتقلا الى دار الخلود ، مرورا بديوانه (السهام) الذي أصدرت السلطتان الفرنسية والانكليزية قرارا بمنعه من دخول البلدان المشمولة بانتدابهما ، قبل ان تنتهي المطبعة من انجاز طبعه [٦٦] .

- ٤ -

ولقد شغل شعر الياس قنصل الوطني والعربي مكانا بارزا في كتاب ألفناه منذ ستة عشر عاما دارسين فيه (العروبة في شعر المهجر [٧٦]) .

هذه العروبة التي تجلت في الحنين الى الوطن ، والسعادة بلقائه بعد طول غياب ، في السير مع أحداثه خيرها وشرها ، في التوق لتحريره ووحدته وقوته ، في تبني قضية فلسطين على أنها قضية العرب الاولى في الحملة على الاستعمار الظالم ومساوئه التي كبلت الوطن العربي ،

---

(٦٥) ادب المغتربين ص ٦٩ .
(٦٦) ادب المغتربين ص٧٤
(٦٧) فريد جحا العروبة في شعر المهجر ، دار رأس بيروت ، بيروت ١٩٦٥

ومنعته من التقدم ، ثم في التغني بأمجاد الامة العربية ، ومآثر الرسول العربي [٦٨] .

في شعر الحنين شوق للوطن ، ولكل مافيه من جمال وذكريات طفولة ما أحلاها وما أبهاها ! اذا ماقورنت بحياة المهجر المادية القاسية[٦٩] :

أحن الى الحقل الذي كان ملعبي وأشتاق عهدا كان للطهر موسما
صبيا يعد الزهر زينة لهوه ويعتبر الارواح نوعا من الدمى
ويدرك من شدو الطيور مرامها وتدرك مامنه ابتغى ان تكلما
يجوب كما يهوى معالم قرية عليها سلام القلب والعقل قيما
تفاهم أهلوها فكانوا قبيلة تؤلف من معنى التساهل معجما
فلا حسد يستنزف الصبر حرقة ويجعل ارث العزم نهبا مقسما
أحاديثهم فيها العواطف تنجلي ولاينجلي فيها الرياء منمنما

وياللشوق الى الحرية من أسر الشدة والمشقات ، والحياة في الحقل ، ملعب الصبا ، بقية العمر [٧٠] :

متى ينتهي أسري وتنفك شدتي وأترك جوا بالمشقات مفعما
فأصرف في الحقل الذي كان ملعبي بقية عمر بالعراك تصرما

ويالها فرحة تغمر القلب بلقاء الوطن كلما عاد الشاعر اليه ، فقصائد اللقاء في (ألحان الغروب) ثلاث [٧١] ، وقطعة (ماأكرمك ايها الوطن) التي نقلناها منذ قليل ، تفيض سعادة وفرحا وسرورا بلقائه ، وبالتغني

---

(٦٨) فريد جحا العروبة في شعر المهجر ، ص٣٧ .
(٦٩) ديوان (ألحان الغروب) ص١٨ و ١٩ .
(٧٠) ديوان (الحان الغروب) ص١٩ .
(٧١) كنا قد أشرنا اليها منذ قليل .

بأمجاده ، وبتاريخه التليد ، فقصيدة اللقاء الأولي معرض لعواطف الشاعر الفنان الذي اضطر للحياة مع التجارة وما يتبعها من سخف الدلالة والمساومة ، ولانه ترك بلاده ، مهد الانبياء ، ومضى يعيش بين أعاجم .

أما الآن وقد لقي الوطن بعد طول غياب ، فهو يستسلم لدموع سعادته التي ذرفها كثيرة متلاحقة . وليس هذا عجيبا ، فلقد قضى حياته في المهجر حالما بلقاء الوطن الذي تقدست ذرات أرضه ، والذي يأمل ان يضم ترابه عظامه (٧٢) .

فلدمشق تحية (٧٣) :

هذي دمشق منار الفضل باسمة   تلقى البنين بنفس ملؤها كرم

وتراب الوطن مقدس لانه يضم بقايا الاجداد العظام الذين نثروا بين الناس خير العلوم ، وأنبل الرايات .

هذا التراب مقدس ذراته   دفقات مجد زاخر مترامي
فيه بقايا الناشرين على الورى   خير العلوم وأنبل الاعلام

فاذا ماأردت دليلا على ذلك ، فاسأل صلاح الدين يوم زحفت الى بلادنا الجموع الظامئة الى شرب الدماء ، ألم يعرف الفرنجة فيه الفتى العربي خلالا كريمة كريمة ، وسيفاً صمصاماً قاطعاً ؟

اسأل صلاح الدين يوم تجمعت   عصب الى شرب الدماء ظوامي
خبر الفرنجة منه ماالعربي في   كرم الخصال وساحة الصمصام (٧٤)

والياس قنصل واحد من الشعراء الذين عاشوا أحداث الوطن العربي المختلفة ، فهتف للثورات الوطنية في سورية ومصر وليبيا ،وعاش

---

(٧٢) العروبة من شعر المهجر ص٧٨ .

(٧٣) الحان الغروب ص ٨١ .

(٧٤) الحان الغروب ص١١ ، والعروبة من شعر المهجر ص٧٤ .

نكبة فلسطين سنة سنة ، منذ بدأت مشكلة الى ان غدت نكبة ...لقد خص الثورة السورية لعام ١٩٢٥ بديوانه الاول ، فهتف لها ولابطالها(٧٥) وفرح لانتصاراتهم ، وحزن عندما استطاع المستعمر بعد ان حشد قواته ان يمزق شمل ثائريها ، وتألم لحريق دمشق كثيرا (٧٦) :

دمشـق أللزمـان عليـك ثـأر   قضى منـه لعيشـك ان يشابـا
فـلا رزء يـزحـزح عنـك الا   ليجعـل غيـره منـه منـابـا
فكـم قاسيت مـن طعن وضرب   وكم كابـدت أهـوالا صعـابا
وكـم قذفت بساحك مـن شظايا   فهـدمـت المنـازل والقبـابـا

وتألم كذلك للثوار الذين قهروا ، ولكـن ذكرهم سيحيا أبـدا لانهم كانوا في حربهم كراما ، وفي انكسارهم كراما (٧٧) :

قهروا أجـل لكن سيحيا ذكرهم   ابدا وليس العـار في ان يقهروا
قهـروا كراما لم يمسَّ اباءهـم   ذل ، ولا خضعوا ، وان لم يظفروا

وهو يهدي رباعياته :« الى الجنود العرب الذين سيدخلون تل أبيب ليدكوا دولة العصابات على رؤوس بناتها ، رمزا لايمانه بأن النصر القريب ، لنا للحق ، للعروبة الخالدة (٧٨) » .

ويرى تقاعس الملوك وجبنهم ، ومكرهم بعضهم ببعضهم الاخر من أسباب النكبة (٧٩) :

---

(٧٥) قصيدة (دعوة بلادي) السهام ص٢٣ ، وفيها يودع ثائر دمشقي بلاده

(٧٦) على مذبح الوطنية ص٤٣ ، من قصيدة بعنوان (نكبة دمشق في حريقها الهائل) .

(٧٧) على مذبح الوطنية ص٣٣ .

(٧٨) رباعيات قنصل ص ٣ .

(٧٩) رباعيات قنصل ص ٣ .

حسبناهـم اذا غضبـوا اسودا فكانوا يـوم غضبتهم ديـوكـا
يفاخـر بعضهـم بالمكـر بعضا ويأبـى ان يقـر به شـريكـا
ولو كـان الكـلام يشيد عرشا لكـان العرب أكثرهم مـلوكـا

والشعب مسؤول كذلك بعـد الملوك ، فالطغـاة قـد جنوا علينا ، ولكن حماستنا لم تثر ، فذنبنا كذنبهم ، وكلنا مسؤولون عن ضياع القـدس [٨٠] :

جنوا علينـا فما ثـارت حماستنا غيظا ولاخف تحت السوط تهليل
ذنب الطغـاة كذنب الخانعين لهم سـيان في الجـرم ظلام ومذلول
وليس يبرأ من اثم الونى أحـد فكلنا عـن ضياع القدس مسؤول

ولقد اشاد في شعره كله بأمجاد الأمة العربية ، وبأبطالها في الماضي والحاضر،وكان الرسول العربي محمد(ص) يبدو له ولزملائه من شعراء المهجر « بطلا عظيما ، ومعلما فذا وثيق الصلة بكرامتهم القومية[٨١] » فلا غرو ان امتدحه في مناسبات عديدة ، وفي قصيدتين طويلتين ، نشير الى ثانيتهما ، وهي التي أدرجها في ديوانه (الحان الغروب [٨٢]) بعنوان (النبي العربي الكريم) معلنـا فيها مع ذلك عجزه عن تعداد مناقبه ، فيكفيه فخرا أنه حمل القرآن [٨٣] :

مـاذا أعـدد من منـاقب كلهـا شرف أَعَدَ النَجمِ في امكـاني
من ذا يضـم بكفه بحراً لـه أفـق تريح لبعـده العينـان
كانت حياتك كـل ثانيـة لهـا تاريخ مجـد طـائل نـوراني
هذا كتابك يملأ الدنيـا وقـد صلحت شرائعـه لكـل زمـان
الضـاد مـن نفحـاته في جنـة محروسة بالحـب والرضـوان

---

(٨٠) رباعيات قنصل ص١٠ (٨١) جورج صيدح في أدبنا وادباؤنا .
(٨٢) ألحان الغروب ص ٩٨ وما بعد .
(٨٣) ألحان الغروب ص١٠١ .

- ٥ -

بقي أن نشير الى ان مضمون هذا الشعر أهم من شكله ، ومعناه أعظم من مبناه ، فنحن نقرأه : « فنعجب بالوطنية الملتهبة ، وبالفكرة المنطلقة على (الصراط المستقيم) ، وبالبيان الكلاسيكي ، مع القليل من الصور الشعرية والابداع الفني ... أما آثاره النثرية فأغنى بالجمالات فبها يسيطر الكاتب على البيان ، ويلبس المعاني ماشاء من الحلل والالوان ، ويشغف القارىء برشاقة الاسلوب ، وأناقة التصوير وحرارة الحوار ، وطرافة الحوادث ، والمفاجآت [٨٤] » .

- ٦ -

على ان الياس قنصل لم يقصر شعره على الاغراض الوطنية والقومية فحسب ، بل نظم في أغراض مختلفة ، وخص ديوانه (بسمات الفجر) الصادر في عام ١٩٤٠ ، بقصائد ذات موضوعات متنوعة كما ان بعض (رباعياته) اشتملت على موضوعات اجتماعية ، وحكيمة ، وفلسفية ، ووصفية ونقدية . و في ديوانه الاخير (ألحان الغروب) قصائد في هذه الموضوعات . نشير الى هذا حتى لا يتوهم القارىء ان الشاعر قد قصر شعره على غرض واحد هو الغرض الوطني والقومي ، ان في هذه الدواوين الثلاثة دلائل على ما نريد .

ففي ديوان (بسمات الفجر) خمسون مقطوعة شعرية مهداة الى حبيبة جميلة قلبت الظلام حوله الى صباح :

أنت أبلجت لي بحبك صبحا   وظلام الخطوب حولي حالك

فالى نفسك الجميلة أهدى   باقة بها عبقة من جمالك [٨٥]

---

(٨٤) جورج صيدح ، ادبنا وادباؤنا ص٦٢٦ و ٦٢٧
(٨٥) ديوان بسمات الفجر ، ص٤

وفي الديوان عجز عن فهم الحيـاة وخفاياها في قصيدة (طلسم الآبـاد) [٨٦] :

لاتطمعـي يانفس في ادراك مـا أعيـا حجـا المتعمـق المتفلسف
طلسـم آبـاد خـلال قسـوره تبدو الظنون الحائمـات وتختفي

وللغة الصمت بيان بيّن ، لان التافـه ينقله اللسان ، واللباب يبقى خافياً في الجنان [٨٧] :

ان للصمـت بيـاناً لا يضاهيـه بيـان
ليس الا العرض التافه ما يبدي اللســان
واللباب الصرف يبقى خافيـاً طي الجنان
فاجعـل الجـوهر قـولاً بسـكوتك

وتأملات في (قطوفها بلا ثمن) تنتهي بالشاعر الى أن يوم السرور هو الربح الوحيد من الزمن [٨٨] :

يومـي الـذي أقضيه مغتبطـاً هـو وحـده ربـح من الزمـن

وهو غريب بجسمه وروحه [٨٩] :

أنـا في غربتين، كـل شعـوري حرقـة بهـا سار يومي وأمسي

وفي كنف الظلام يلذ لقاء العاشقين [٩٠] :

لئـن لـذ للعـاشقين اللقـاء فأحـلاه ماكـان تحت الظـلام
تطـل عليهـم نجـوم السمـاء ويرمقهـم ربهـا باحتـرام

---

(٨٦) ديوان بسمات الفجر ، ص٥
(٨٧) ديوان بسمات الفجر ، ص٦
(٨٨) ديوان بسمات الفجر ، ص٧
(٨٩) ديوان بسمات الفجر ، ص٩
(٩٠) ديوان بسمات الفجر ، ص١٣

و (زهرتي المختارة) [٩١] ، موشح الزهرة فيه رمز الفتاة التي يحب . و (مشعل الغرام) [٩٢] قصيدة لطيفة يلتقي فيها الغزل، بالتغني بالفن في وحدة منسجمة :

خالدة أنت فلا تجزعي ان ضم جسمك الجميل التراب
أمنك الفن على وحيه وهو اله أمره مستجاب
جمالك الساحر أغرودة يراعتي تنقل عنها البيان
وحبك الخالص لي جنة ترددها النفس من كل آن
ان الغرام مشعل غيبت رموزه ، والفن مرساله
فكيف لا يبدع في شعره من كان حبك الهامه

و (كمنجة سامي الشوا) [٩٣] (*) مناسبة لبيان منزلة الشرق مقابل منزلة الغرب :

يا رسولاً من العروبة للغرب وفي الغرب مائج الحقد طام
قل لمن أرسل الأقاويل عنا سابحا في مزالق الأوهام
شرقنا ــ والخطوب غضبى عليه ــ منبت الشعر ، مهبط الالهام

و (الى متشائم) [٩٤] ، دعوة الى ان يكون الانسان صباحا لمن أظلمت الدنيا حوله ، وابتساما للحزين ، وعزاءً لمن تخلى عنه الناس :

(*) سامي الشوا عازف عربي مشهور
(٩١) ديوان بسمات الفجر ، ص٢٢
(٩٢) ديوان بسمات الفجر ، ص٢٤
(٩٣) ديوان بسمات الفجر ، ص٢٧
(٩٤) ديوان بسمات الفجر ، ص٢٨

كن صباحا لمن توالت عليه ظلمات الخطوب والأرزاء
وأناساً لمن تحمل ، مايدمى له القلب من عبوس القضاء
وعزاء لمن تخلى وداد الناس عنه في الشدة العسراء

و (يا ليت) [٩٥] موشح انساني يتمنى فيه الشاعر أن يكون له قلب يفيض عطفاً على الفقير ، ومواساة لمن خانه حبيبه ، وأخوة لليتيم وعزاء للتعيس ... فهو الى الخير ظام ، وآمل أن تذوب قلوب الناس جميعاً عطفاً ووجداً ، اذاً لأسعد الحب البشر ، وغدت الأرض جنة:

اني الى الأرض ظام ولست أملك وردا
الام يرسم غيري لما أحاول حدا
يا ليت كل فؤاد يذوب عطفاً ووجدا
فيسعد الناس حب وتصبح الأرض خلدا

و (كيف خلق الله الزهور) [٩٦] قصة طريفة تحكي حزن حواء وأساها لمقتل ابنها قابيل بيد أخيه ، وتوسط بدر السماء لدى الله ليخفف عنها واستجابة العلي لدعائه :

وكأن العلي لاحت له من لهجة البدر فكرة عبقريه
فرنا باسماً الى الأرض والرحمة من وجهه المهيب جليه
مرسلاً من حبوره كلمات وأدت رهبة الدجى المدلهم :
« كل شيء خلقته لا يساوي ذرة من حنو قلب الأم
فلتخلد هذي الدموع رموز عطرات تزهو بوشي منمنم »
واستفاقت حواء من يأسها الفادح والزهر حولها يتبسم

(٩٥) ديوان بسمات الفجر ، ص٣٤
(٩٦) ديوان بسمات الفجر ، ص٣٨

وفي ديوانه الأخير (ألحان الغروب) قصائد في : الأماني كلها تتساوى ـ ومناهل من جمر ـ وشاعر في مدينة ـ ومريض ـ والسعادة ـ وغيرة ـ ورائد القسر ـ وقناعة ـ وشاعر ـ وعبيد القيود ـ وأديب والفصول الاربعة ـ وذكرياتي ـ وقيم الأشياء ومآل الحب ـ وعلى الشاطىء ـ وجوهر الحب ـ ومجدلية الحب ـ وقبل الانداء ـ وعذاب الهوى ... وهي قصائد تتناول موضوعات الوصف والغزل والحكمة وأمراض المجتمع ، كما ان فيها ذكريات شخصية ، وأحداثاً مرت بالشاعر فسجلها شعرا .

والديوان الأخير هذا مطبوع منذ ثلاثة أعوام وهو قريب العهد بنا ؛ وما على القارىء اذا أراد ان يطلع على قصائد هذه الموضوعات الا ان يعود اليه ليجد مصداقا لما سجلناه .

* * *

القسم الثالث

الياس قنصل الكاتب

[illegible]

[illegible]

الياس قنصل الكاتب

- ١ -

يشكل نتاج الياس قنصل النثري جزءاً هاماً جداً مما قدم في حياته الادبية من حيث الكمية والنوعية • فعدد مؤلفاته النثرية المطبوعة أربعة عشر كتابا[١] ، والمخطوطة خمسة عشر[٢] ، فيها أربع مجموعات أقاصيص (من مناهل الحياة [٣] ، في مدار الزمن ونساء وأكاذيب صادقة [٤]) واثنتا عشرة قصة (صديقي أبو حسن [٥] ، في سبيل الحرية [٦] لصوص الشرف [٧] ، دولة المجانين ، وغالب أفندي ، وفلسفة حمار[٨] ، أحلام ، والوثيقةالمزورة ، وخنان ، وبين معارك الثورة ، وهذا أنا ، والعبقري المجنون[٩]) • وروايتنا (على ضفاف بردى[١٠] ، وفي مهب

---

(١) قائمة كتبه المطبوعة ، ملحقة بروايته (في مهب الريح) ص ٢١٥ .

(٢) قائمة كتبه المخطوطة ، ملحقة بروايته (في مهب الريح) ص ٢١٤ .

(٣) مطبوعة ببغداد عام ١٩٦٧ .

(٤) ثلاث مخطوطات مسجلة في ص ٢١٤ من روايته (في مهب الريح) .

(٥) مطبوعة في الارجنتين عام ١٩٣٧ .

(٦) مطبوعة في الارجنتين عام ١٩٣٩ .

(٧) مطبوعة في الارجنتين عام ١٩١٤ .

(٨) ثلاث قصص مطبوعة بدمشق في عام ١٩٥٥ ، عن دار الرواد ودار ابن المقفع .

(٩) ست قصص مخطوطة مسجلة في ص ٢١٤ من روايته (في مهب الريح).

(١٠) مطبوعة في الارجنتين في عام ١٩٣٨ ، وكانت قد نشرت مسلسلة من مجلة (المناضل) .

الريح [11]) واربع دراسات أدبية (أصنام الأدب [12] ، وأدب المغتربين [13] ، وتاريخ الادب المهجري [14] ، ومأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية [15]) وخمس مجموعات مقالات (البقايا [16] ، هنا وهناك [17] ، منذ عشرين سنة ، والكواسد ، ومن زوايا النسيان [18]). يضاف الى ذلك مؤلف من ثلاثة أجزاء بعنوان (أوراق مبعثرة) وهو مخطوط [19] ، أعطانا جورج صيدح عن مضمونه ، فكرة حين روى بعضاً مما فيه فاذا هو كلمات متفرقة يغلب عليها طابع الحكمة [20] .

فاذا ما أضفنا الى ذلك أن الياس قنصل قد « عني بفن الخطابة فبرع فيه ، وأنه كان يثير الحماسة والاعجاب في كل محفل يتكلم فيه ، كما كان يثير السخط والنقمة في صدور الأثرياء بحملاته الشعواء عليهم في كل مقام [21] » أدركنا أنه قد عالج جميع فنون النثر وأنواعه ما عدا المسرحية ، ففي أدبه الاقصوصة والقصة والرواية والمقالة والخطبة والدراسة الادبية والحكمة .

---

(١١) مطبوعة في بوينس آيرس بالارجنتين عام ١٩٧٢ .

(١٢) مطبوعة في بوينس آيرس بالارجنتين عام ١٩٣٩ .

(١٣) مطبوعة في دمشق عام ١٩٦٢ من قبل وزارة الثقافة والارشاد القومي

(١٤) مخطوطة مسجلة في ص ٢١٤ من روايته (في مهب الريح) .

(١٥) طبعه اتحاد الكتاب العرب في دمشق عام ١٩٨٠ .

(١٦) مطبوعة في بوينس آيرس عام ١٩٤٠ .

(١٧) مطبوعة في تونس ، الدار التونسية للنشر عام ١٩٦٩ .

(١٨) مسجلة في قائمة مخطوطاته ص ٢١٤ من رواية (في مهب الريح) .

(١٩) سجل في قائمة مخطوطاته ص ٢١٤ من رواية (في مهب الريح) .

(٢٠) جورج صيدح ، أدبنا وادباؤنا ص ٦٢٨ .

(٢١) جورج صيدح ، أدبنا وادباؤنا ص ٦٢٦ .

- ٢ -

ولنبدأ بفن الخطابة : مضيفين الى شهادة صيدح التي أوردناها منذ قليل ، أننا استمعنا اليه في الاذاعة يلقي نثره القاء معبرا ، واستمعنا اليه يقرأ شعره ، فكان القاؤه موفقا مؤثرا ، مما يعزز رأي صيدح فيه ، وهو الذي يعرفه عن قرب ، وكان زميله في (الرابطة الادبية) التي ألفت في الأرجنتين ، وشهدت نشاطهما الادبي والخطابي والشعري ، كما شهدت كثيرا من مطارحاتهما (٢٢) ومباسطاتهما •

وقد وصلتنا له سبع خطب في كتابه (البقـايا) (٢٣) ألقاهـا في مناسبات وطنية واجتماعيـة ، وهي تحمل العناوين التاليـة : الشباب والوطن ، شهداء سورية ، فكرة فيصـل ، روح الشبيبة العربية في الأرجنتين ، والعلامة سليمان الاحمد ، ومعركة انتصر فيها حق العرب ، وعيد الفطر •

هذه الخطب تتجلى فيها جميعا عروبة والتـزام بقضـايا الوطن البعيد ، وتكريم رجاله وأبطاله ، وشهدائه • وأسلوبه فيها فخم يعبر عن عاطفة جياشة وحماسة بالغة • نقرأ له في الشباب (٢٤) : « ان الشباب في عرفي ليس قلة في الاعوام ، ولكن الشبـاب الذي أعرفه وأمجده وأدعو اليه : عزيمة لاهبة ، ونشاط متواصل ، وهمة لاتفتر • والبلاد التي ليس فيها شباب من هذا النوع هي الامة التي تتدهور الى الاعماق ، مهما كثر عدد متعلميها ، وغصت مستودعات ذخائرها الحربية » ••

---

(٢٢) للتوسع في أمر (الرابطة الادبية) ينظر جورج صيدح ، أدبنا وأدباؤنا ص ٦١٥ ، والياس قنصل ، أدب المغتربين ، ص ٤٩ •

(٢٣) مطبوع في بوينس آيرس آذار ١٩٤٠ ، وهو مجموعة مقالات وخطب وكلمات وقصص ، والخطب من ص ٥ الى ص ٢١ •

(٢٤) البقايا ص ٦ •

ونقرأ من خطبته في شهداء سورية [٢٥] : « دام الانتداب الفرنسي ستة عشر عاماً ، وكانت كل حفنة من حفنات ظلمه هذه المدة الطويلة يقابلها في الكفة الثانية نصيبها من الــدم الشريف ، من دم الشباب الناهض ، من ذلــك الدم الذي يجترح العجيبة المنتظرة منه ، متحولا الى حجج قاطعة على أن أبناء سورية يتحملون العذاب، ولكنهم لا يخنعون له ، ويرهقهم الحديــد ، ولكنه لا يذل في نفــوسهم الاباء العربي المشهور ، وتتناولهم المظالم ، ولكنهم على الرغم منها ، يلبثون غرة في جبين المجد والسؤود . »

وهو في خطبة أخرى [٢٦] يعلن عن رأيه في الدعوات الشعوبية ، وفي وقوف الفكرة العربية في وجهها : « وتقوم الآن في قسم من أقسام سورية العزيزة ، في لبنان ! ـــ فكرة غريبة هي الفكرة الفينيقية ، وتلقى بعض المجندين لها من أصحاب الهوى البعيد عن المنطق ، ولكن هــذه الفكرة ستموت ، وستشمل ربوع الارز ـــ مــن جديــد ـــ الفكرة العربية ، لأن الفينيقية والكردية والفرعونية فكر لا تستند علــى شيء من الحق والنزاهة والتاريخ .. أما الفكرة الغربية ففيها قوة التاريخ المجيد ، وجبروت الحق الساطع ، وعظمة النزاهة الوضاءة . »

روح الشبيبة العربية في الارجنتين [٢٧] « قــدست وطنــا شاملا رسمت حدوده يد الطبيعة ويد التاريخ ، ولم تجزىء الامة الى عناصر يناحر بعضها بعضاً ، بل نظرت اليها أمة واحدة تجمعها اللغة ، أقوى رابطة قومية عرفها الوجود ، انها لغة القرآن الشريف .. » ونقتبس

---

(٢٥) البقايا ص ٨ والخطبة القيت في كانون الاول ١٩٣٦ .

(٢٦) الخطبة ص ١٠ ، وهي خلاصة الخطاب الذي القاه في حفلة تكريم ذكرى فيصل في كانون الاول ١٩٣٧ .

(٢٧) من خطبة له بهذا العنوان ، القيت في آذار ١٩٣٨ ، بمناسبة انعام الحكومة الوطنية عليه بوسام الاستحقاق السوري ، البقايا ص١٢ و ١٣ .

من الخطبة خاتمتها التي تقول : « كيف يكون وطننا ضعيفاً فقيراً وعلى رابية من روابي دمشق التاريخية تقوم ميسلون الخالدة ؟! »

ونقرأ من خطبته في عيد الفطر (٢٨) : « وهذا عيد قومي ، عيد عربي قبل أن يكون عيداً اسلامياً ، لأن المصلح الاكبر الذي يخصص هذا النهار لذكرى فرض من فروض تعاليمه هو أول من وضع أسس القومية العربية .. ان المسلم العربي الحقيقي ، والمسيحي العربي الحقيقي ، سيّان في تقديس الرسالة التي رفع لواءها فتى قريش ، فان كان المسلم يكرم في محمد أعظم نبي ، فنحن ــ المسيحيين الأحرار ــ نكرم فيه أعظم بطل أنجبه التاريخ العربي .... »

وهكذا تتميز خطب الياس قنصل بالمضمون العربي الواضح المشرق ، وتدعو الى وحدة العرب ، وتشيد بالشهداء ، وتكرم الرسول العربي جاعلة منه ، الى جانب نبوته ، بطلا عربيا عظيما .. كل ذلك في اسلوب سهل ، وجمل قصيرة ، وصور مؤثرة تطير مع الخيال بجناحين قادرين .

وقد تطور ذلك الاسلوب الخطابي بعد ذلك ، فغدا جماع حديث يتكلم فيه العقل والقلب معاً ، بعد أن تقدمت السن بالشاعر الاديب فغدا خطيبا يقدم الفكر بأسلوب جميل ، والعاطفة في قالب الفكرة التي تقنع وترضي .

مثالنا على ذلك الخطاب الذي ألقاه في عام ١٩٧٣ في بوينس آيرس حين انعقد مؤتمر المغتربين العرب ، وأقامت (ندوة الأدب العربي) في اسبوعه حفلة أدبية كان الياس قنصل أحد المتكلمين فيها (٢٩) .. في ذلكم الخطاب الذي كان بعنوان (مصير الجالية) التقى العقل بالقلب ، والحماسة بالفكرة الهادئة .. طالت الجملة فيه ، وطالت حتى استغرقت

(٢٨) القيت في كانون الثاني ١٩٣٩ ، البقايا ص ٢٠ و ٢١ .

(٢٩) ورد الخطاب في كتابه (ماساة الحرف العربي) ص ٤٧ وما بعدها .

مقطعاً في عدة أسطر ، وطال الخطاب فغدا شبه محاضرة ، الا أن الحماسة بقيت متدفقة تنم عن عاطفة جياشة .

نقرأ من هذا الخطاب (٣٠) : « أما أنا وان كانت تبهرني هذه الحالة . فانني أطوي الاعوام الثمانين التي مرت على الغرب في هذه الديار وأعود القهقرى بفكري الى بدء الهجرة فتلوح لي وراء ذلك المتجر الكبير سحنة فقير ثيابه بالية يحمل صندوقا من الخشب العتيق ، عرضه أشبار معدودة ، حوى سلعاً بخسة من زراكيش ومشابك وخرزات ، وما اليها ، يذرع الاسواق جيئة وذهابا معلناً عن بضاعته بصوت عال : أهزوءة لكل صفيق أراد أن يتندر به ، وتلوح لي وراء ذلك العمل الصخاب أصابع محتاج يعمل من انبلاج الفجر الى عتمة الليل في حصاد الذرة وجمعها ، محتملاً لذعة الشمس ، وصقعة الزمهرير لينال في آخر الموسم ما يسد به الرمق .. » .

ثم ترتفع حرارة الكلمة : ويشرق الأسلوب ، وتقصر الجملة ، فالحديث هنا عن التاريخ العربي ، والماضي التليد ، ومآثر الامة العربية (٣١) . « فرق بعيد بين أن تكون فلانا فحسب ، وبين أن تكون فلانا العربي ! فرق بعيد بين أن تجر وراءك سعياً عمره من عمرك ، وبين أن يظللك مجد عمره آلاف السنين ، فيه أديان وفلسفات رفعت الانسان من وهدة الخمول الى قمة الشعور .

فرق بعيد بين أن يكون رصيدك في البنك مليون ريال ترقمه لك آلة حساب جامدة ، وبين أن يكون رصيدك سمعة فتوحاتها نواطق بالعدل والانصاف ، عاطرة بالفن والجمال ، أمة تركت في مسمع الدهر دوياً تردد صداه تباب الحمراء في الاندلس ، وستظل تردده الى أبد الآبدين » .

(٣٠) مأساة الحرف العربي ص ٤٨ .

(٣١) مأساة الحرف العربي ص ٥١ .

- ٣ -

والمقالة هي النوع الادبي الثاني الـذي مارسه الياس قنصل ، ولعلها أكثر الفنون الادبية اهمية في ادبه من حيث الكمية ومن حيث النوعية جميعاً • فقائمتا كتبه المطبوعة والمخطوطة تضم خمس مجموعات مقالات [٣٢] ، يضاف الى ذلك أن كتابي (أدب المغتربين ، ومأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية) يتألفان من موضوعات يشكل كل منها مقالة تكاد تكون شبه مستقلة •

ولقد رافقت المقالة الياس قنصل طوال حياته ، فأحاديثه الكثيرة في اذاعة دمشق ، وخطبه التي ألقاها ، ومـا كان يكتبه في الصحف ، سواء عندما كان محررا في الجريـدة السورية اللبنـانية أو رئيساً لتحريرها ، أو صاحب مجلة المناهل الشهرية ورئيس تحريرها ، أوعندما كان يزود الصحف المختلفة في المهاجر والوطن بنتاجه •• كل ذلك كان يدخل ضمن اطـار المقـالة •

ولقد اطلعنا على بعض أعداد السنة الاولى من (المناهل) التي صدرت في نيسان من عام ١٩٣٧ ، فوجدنا الياس قنصل يزود كل عدد بمقال افتتاحي ، وقـد يضيف الى الافتتـاحية مقالاً أو مقالـين • وموضوعات هذه المقالات متنوعة فيها الاجتماعي وفيها الأدبي ، ولكن الطابع الوطني أو القومي العربي غالب عليها ، وكثيراً ما تكون ذات صلة بأحداث تجري في الوطن أو في المهاجر •

ويلاحظ على هذه المقالات القصر ، فبعضها لا يتعدى الصفحـة الواحدة ، وبعضها الصفحتين ، وقلما تصل الى صفحات ثلاث • ينطبق هذا على المقالات التي جمعها في كتابه (البقايا) التي تحمل العناويـن والموضوعات التالية : (الى السلطات الفرنسية في بلادنا) ، بمناسبة

---

(٣٢) القائمتان ملحقتان بروايته (في مهب الريح) ص ٢١٤ و ٢١٥ •

تتويجها ديوان السهـام بمنعه مـن الدخول الى الاراضي المشمولـة بالانتـداب الفرنسي[٣٣] ، و (ابراهيم هنـانو) تكريم لـه واشادة بذكراه [٣٤] ، و (أشرف الرسـالات الادبية العـربية) هي الرسالة القومية العربية [٣٥] ، و (جهادنا في سبيل الحرية [٣٦]) ، و (خدمة الجندي الأمين) بانتهاج الشدة واللهجة العنيفة في الشؤون الوطنية[٣٧] ، و (من نكبات الامة العربية) الاتجاه الى الغرب وأخذ حضارته بخيرها وشرها [٣٨] ، و (أمة تريد الحياة) : فالعرب قد استيقظوا بعد نوم وبعد محاولات يائسة من دولة بني عثمان خلال مئات من الاعوام ، وهي تسعى لتلاشي الروح العربية فينا [٣٩] .

نتقل من هذه المقالات بعض المقاطع لتكون شواهد على ما قدمنا مـن ميزات مقالاته . قال من مقالة : الى السلطة الفرنسية في بـلادنا بمناسبة تتويجها ديوان (السهام) بمنعه من الدخـول الى الاراضي المشمولة بالانتداب الفرنسي [٤٠] : « لك التهنئة أيها السلطة ! على امتداد يدك بالظلم الى أقطـار عديدة ، وانتشار حكمك بالشر على مظاهر جمة .. تهنئة تمازجها شفقـة لا نرضاها الا لمن كان مثلك قوة بالأدوات الاعدامية ، وضعفاً أمـام الحق ، وخذلاناً تجـاه الشعور الانساني النبيل .

لقد أصبت بخوفـك مـن النبرات التي تعالت في كتابي ، فهي

---

(٣٣) البقايا ، الصادر بالارجنتين في آذار من عام ١٩٤٠ ص ٢٢ و ٢٣ .
(٣٤) البقايا ص ٢٤ و ٢٥ .
(٣٥) البقايا ص ٢٦ و ٢٧ .
(٣٦) البقايا ص ٢٨ و ٢٩ .
(٣٧) البقايا ص ٣٠ و ٣١ .
(٣٨) البقايا ص ٣٢ و ٣٣ .
(٣٩) البقايا ص ٣٤ و ٣٥ .
(٤٠) البقايا ص ٢٢ .

رموز ألم فادح تكابده أمة مستقرة على ماض عزيز ، تعالج حاضرا صعبا، وتنظر الى مستقبل باسم ، أمــة بسطت عدالتهــا ـ منذ أجيــال ـ على القارة التي أصبحت ترد لها العدالة تمدناً زائفاً ، وهلاكاً راهناً ، وكذباً مطلياً بالسيــاسة .

لئن استطعت أن تمنعي الكتــاب من الدخــول الى الاراضي المشمولة بانتدابك ، فلن تستطيعي أن تمنعي روحه لأنها متغلغلة في نفوس السوريين ، تجري في عروقهم مجرى الحياة ، فتحرك رجالهم للجهاد المتواصل ، وتدفع بفتيانهم الى غمرات النــار ، وتحمل نساءهم على السير في طليعة المظاهرات .

ان ألف ديوان يجري به قلمي ـ أيتهــا السلطــة ! ـ لا يوازي قطرة دم من ذلك الدم الطاهر الــذي تصبب في الشهرين الأخيرين دفاعاً عن الكرامة ، وذوداً عن الحق ، وتضحية خالصة للوطن ، أفتسنى لك أن تمنعيه من التصبب وهو بين يديك ، والقوة الغاشمة حليفة لك ، والشرائع تجاريك التواء ورياء ؟! » .

وقال من مقالته (أشرف الرسالات الادبية العربية) (٣٥) : «يأخذ بعضهم علينا ـ نحن الادباء العرب ـ صرف كثير مــن جهودنا على القضية الوطنية ، ورهن القسم الاكبر من منتوجاتنا على استنفار الهمم لتسعى الى الاستقــلال المنشود .

ويردد هؤلاء أمامنا قولهم : ان الادباء يجب أن يكونوا انسانيين ، لا تقتصر آثارهم على القوميــات ، ولا تتغلف نفثــاتهم بالعصبيات ، ولا تعترف بنات أفكارهم بالحــدود ، على الأدباء أن يشملوا بالحب والود الانسانية كلها ، وأن يدعوا جميع الناس بلا استثناء الى التصافي والتعاطف .. هذا شيء مما يقولونه لنا ، ناسين أننا ، ونحن المتلهبين

حماسة لوطننا ، أشد الادباء حباً للانســانية وعطفاً عليهــا ، وانـنـا ـ بحماستنا تلك ـ نؤلف دعائم راسخة للاصلاح العالمي عامة • اننا نحب الانسانية ، لأننــا نحب بلادنا ، اذ هي جـزء من الانسانية ، ونعطف على العــالم أجمع ، لأننا نعطف على قسم منه هو اخواننا • ان اصلاح وطننا هو تتمة لاصلاح الكون ، والعطف على أبناء أمتنا تكميل للعطف على بقية خلائق الله • ولو أن الانسانية غرقت في الهناء الى عنقها ، ولم يبق فيها الا وطننا يعــاني من التعاسة ، لما كان هنــاء الانسانية تاماً كاملا •

اننا نبدأ بالحب من طرفه الاول ، فنحب وطننا بادىء ذي بدء ، حتى اذا ما تم حبنا له باستقلاله ، أصبــح في مكنتنــا أن نحب وطن الآخرين • أما أن نحب وطن غيرنا ، وهو سعيد باستقلاله ، ونترك وطننا ، وهو يعاني ما لا يحصى له عد من المصائب والكوارث ، فشبيه بأن يغادر والد ابنه على سرير المرض الوبيل ، ليتحول الى الحوانيت بحثاً عن لعبة جديدة يقدمها الى ابن جاره الناعم بالعافية ، المحفوف بقبلات والديه وحنوها ••

ان الواجب ، الواجب الــذي يقره المنطق والحق ، يقضي علينا ألا نكون كاذبين في تأدية رسالتنا الوطنية ، أشرف الرسالات الادبية العــربية • »

تلخص المقالة الاخيرة هذه أدب الياس قنصل فكرة وعملا ، نظرية وتطبيقاً ، انه ملتزم بقضايا وطنه الصغير ، ووطنه الكبير ، ولقد بقي طوال حياته كذلك ، مطالباً بالحرية والاستقلال ، مدافعا عن فلسطين ، وداعيا الى الجهاد لتحرير الارض المغتصبة ••• يؤدي هذه الموضوعات في أفكار واضحة ، وأسلوب شيق ، تغلب عليه العاطفة ، وتشيع فيه الحماسة ، لذلك فالجملة قصيرة ، والصور وفيرة ، والاقناع ماثل في المنطق والمناقشة حيناً ، وبالهاب الشعور واثارة الحماسة أحيانا كثيرة •

ولم يتوفر ، في نتاج الياس قنصل ، فن من الفنون الادبية مثلما توفر الفن القصصي : فقد ترك لنا أربع مجموعات أقاصيص ، واحدى عشرة قصة ، وروايتان [٤١] • ويلاحظ أن مصطلحي القصة والرواية غير واضحين في ذهنه أحيانا ، فهو يعتبر (في مهب الريح) قصة ، بينما هي رواية تقع في احدى عشرة ومائتين من الصفحات •

ونبدأ بالأقصوصة ، بين يدي مجموعتان منها : الاولى وردت ضمن كتابه (البقايا) المطبوع في الارجنتين عام ١٩٤٠ [٤٣] ، والثانية مجموعة (من مناهل الحياة) المطبوعة ببغداد في سنة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧ م ، وهما المجموعتان الوحيدتان المطبوعتان ، أما المجموعتان الأخريان فلا تزالان مخطوطتين ، وهما تحملان عنواني (في مدار الزمن، ونساء) [٤٤] •

لسنا نعرف بالطبع عن المجموعتين المخطوطتين سوى عنوانيهما ، لذلك نكتفي بدراسة المجموعتين المطبوعتين ، وهما تعطيان، على كل حال ، فكرة جيدة عن فن الاقصوصة لديه من جهة ، وعن تطور هذا الفن من جهة ثانية ، لأن سنتي طباعتهما متباعدتان ، استغرقتا من الزمن سبعة وعشرين عاما •

---

(٤١) عناوينها وسنوات طباعتها وأماكن ذلك في القائمتين الملحقتين بروايته (في مهب الريح) ص ٢١٤ و ٢١٥ •

(٤٢) كما ورد على غلافها تحت العنوان •

(٤٣) البقايا من ص ٣٦ الى نهاية ص ٦٠ •

(٤٤) المجموعة الاولى ترتيبها في قائمة مخطوطاته ، والثانية ترتيبها السادس عشر في القائمة المذكورة ، والقائمة ملحقة بروايته (في مهب الريح) ص ٢١٤ •

المجموعة الاولى بعنوان قصص تبدأ بايضاح يذكر لنا فيه الياس قنصل أنه تلقى بالبريد حزمة فيها عدة صحائف ، ومعها رسالة من مهاجر يذكر فيها أنه كان ، ذات يوم، ينشر في الصحف مقالات وقصصاً ، وأنه كان معروفا ، وأنه يرسل اليه هذه القصص طالبا تهذيبها ونشرها « لتخفيف عبء المسؤولية التي يشعر بها ضميره ، ولتكون عبرة للناس جميعا ، وخاصة لتتعلم الشبيبة منها حكم العادات السخيفة على ضياع الأدب والفضيلة ، وعدم الاسترسال في أمواج الحرية الشهوانية الذي يلقي صاحبه بعراء الخسران [٤٥] . » ثم يعلمنا الياس قنصل أن ليس له في هذه القصص الصريحة الا تهذيب عباراتها فقط ، وأن موقفه منها موقف الوسيط ، وأنها اذا استحسنت ، فالثناء الطيب ينبغي أن يكون على صاحبها [٤٦] .

على أن قراءة متمهلة لهذه القصص تفيدنا أن بطلها هو الياس قنصل نفسه ، فهذا البطل مهاجر عزب [٤٧] ، وأديب خطيب [٤٨] ، وشاعر [٤٩] ، ولكن ما فيها من عواطف ، ومن أدب مكشوف نوعاً ما أحيانا ، هو الذي دفعه لأن ينسبها الى غيره ، مدعيا أن ليست له علاقة بها ولا ببطلها . وأن كل ما فعله لم يتعد تهذيبها وتنقيحها لغويا .

---

(٤٥) البقايا ، من الايضاح السابق للقصص ص ٣٦ و ٣٧ .

(٤٦) البقايا من الايضاح السابق للقصص ص ٣٧ .

(٤٧) البقايا القصة الثالثة ص ٥٢ ، وفيها كانت تعيش وحدها كما كنت أعيش وحدي .

(٤٨) القصة الثانية ص ٤٦ ، وفيها يقول : وطلب الحاضرون كلمة ، فاعتذرت ولكن الحاحهم اضطرني الى الخطابة ... وتعالى التصفيق لي حين انتهيت .

(٤٩) القصة الرابعة ص ٥٤ ، وفيها : وكان في وسعي ان انظم التاريخ في اثناء تلك الجلسة .

وهي خمس قصص بطلها واحد هو انسان عربي مهاجر عزب وأديب وخطيب وشاعر ، عمل في الصحافة حيناً ، ثم انقطع للتجارة .. وهو كذلك شاب له عواطفه الجياشة ، وحبه للمرأة ، وحرصه عليها ، وعلى الاتصال بها ، وهو يندفع مع أهوائه في القصص كلها ، فيقيم علاقة عابرة ببطلات الاقاصيص الخمس ، علاقة يتم فيها الوصال الجسدي ، الا في القصة الاولى حيث يقوم صراع نفسي في نفس البطل لأن الفتاة التي أحب عذراء ، كذلك ينتصر للجانب الخلقي في قلبه ، فيكتفي بقبلات حارة يطبعها على فمها وعنقها ، ويغادرها دون أن يعبث بعفتها ، ثم يغادر المدينة كلها رغم الحاحها ، والحاح أبيها عليه ليبقى .. على أنه يتغير بعد مدة حين يلقاها ، ويعلم أنها قد تزوجت ، لذلك يلبي دعوتها الى المنزل ، حيث المكان خال ، والزوج في رحلة تجارية طويلة الأمد .

أما الاقصوصة الثانية (٥٤) ، فتجربة أخرى لبطل هذه الاقاصيص مع أرملة جميلة ، يحبها ، وتحبه ، وينتهي هذا الحب بالوصال . وكذلك تكون نهاية القصة الثالثة (٥٢) ، التي تروي قصة حبه لفتاة عرفها في الوطن صبية خلوقة ، ثم لقيها في المهجر جميلة جريئة ، مات خطيبها وهو في الطريق اليها ، وتكالب عليها الناس يريدون عفتها بدلا من عملها وكدها ، وانتهى بها المطاف لتصبح غانية غير متهتكة ، تتظاهر بأنها خياطة ثياب ، وتصطاد القليل من الرجال الذين يستطيعون أن يغدقوا عليها الاموال .

أما بطلة الأقصوصة الرابعة (٥٣) فامرأة في الخامسة والعشرين ، جميلة شابة ، وهي زوج رجل شيخ يكبرها بثلاثين سنة ، لذلك كانت شقية بهذا الزواج ، حزينة لشبابها الذي لا تجد له صدى لدى زوجها

---

(٥٠) البقايا ص ٤٢ .

(٥١) البقايا من ص ٤٥ حتى ص ٤٩ .

الكهل ، لذلك تروي قصتها للبطل ، قصتها التي تتلخص بأنها كانت ضحية التقاليد الرثة البالية ، فأهلوها قيدوها بسلسلة قاسية حين زوجوها من ذلك العجوز الذي كان سبب شقائها .. وتنتهي الأقصوصة بصفحة انشاء تدعو لايقاف مثل هذه الزيجات التي « تضع شحرورة في قفص مع غراب أسحم ، أو امرأة ناضجة الانوثة لا تجد الى جانبها من يشبع غريزتها الطبيعية » .

وبطلة الأقصوصة الاخيرة (٥٤) زوجة جميلة آثر زوجها عليها احدى العاهرات ، فتركته ، وانتقمت منه ومن الرجال والنساء معا بالاستهتار ، فكانت الضحية الوحيدة .. وكان بطل الاقاصيص آخر حلقة في سلسلة انتقامها ، لأنها جربت جميع أصناف الرجال ما خلا الادباء .

هذه باختصار خلاصات هذه الاقاصيص .. انها نوع من مذكرات الشباب بلسان المتكلم بعد استعارة بطل آخر .. اننا لنعجب مما فيها من انطلاق ، ودعوة الى التحرر ، ولكننا ينبغي ألا ننسى أن كاتبها شاب في السادسة والعشرين ، مر بهذه التجارب فكتبها ، باندفاع الشباب ، صادقا صريحا .

أما من الناحية الفنية ، فلا عقدة في هذه الاقاصيص ولا حبكة ، بل هي معروضة بشكل بدائي .. واذا كان لبعضها أهداف اجتماعية ، كالاقلاع عن تزويج الفتيات بمن يكبرهن سناً ، فان في بعضها الآخر دعوة غريبة الى التحرر ، تدعو الى الانتقام من الآخرين ، ولو كان ذلك على حساب الاخلاق .

---

(٥٢) البقايا من ص ٥٠ حتى ص ٥٣ .

(٥٣) البقايا من ص ٥٤ حتى ص ٥٧ .

(٥٤) البقايا من ص ٥٨ الى ص ٦٠ .

وننتقل الآن الى المجموعة الثانية من أقاصيصه وهي التي نشرها بعد سبعة وعشرين عاما ، سنعرض مضمونها وموضوعاتها ، والاهداف منها ، ثم نبين مقدار التطور الذي اصاب هـذا النوع من قصصه من حيث المضمون أو الموضوع ، ومن حيث التقنية الفنية .

انها ثماني عشرة اقصوصة ، يتضح لدى قراءتها انـه كتبهـا في فترات متباعدة وأنه اختارها من بين قصص سبق أن كتبت ونشرت خلال مدة طويلة . على أن القـارىء يلحظ فيها تطورا في الاسلوب والتقنية نحو النضج ، مما يبعدها عن مستوى أقاصيص المجموعة الاولى التي توحي بالشباب ، ويؤكد لنا أن كاتبها قد نضج عمرا وفنا ، وهذا ما يدفعنا الى تحديد زمن كتابتهافي الخمسينات والستينات .

الأقصوصة الأولى (٥٥) اجتمـاعية ابطالها الكاتب نفسه الذي يتخذ صفة الراوي ، وشرطي يتدخل لانهاء نزاع ، وخادم شرير يحتفل بنتيجة المباراة ، وعتالان يتشاجران من أجل ريال ، بالكلام سـباباً وشـتائم مقذعة أولا ، ثم بالأيدي والأرجل ركلا ولكمـاً ، وطبيب ومهندس ، كانا صديقين وزميلي طفولة وشباب ، ثم أصبحا عدوين من أجل قطعة من الأرض صغيرة ، عدوين انتهى بهما الأمر الى مبارزة بالمسدسات كادت تودي بحياة الطبيب ... فالانسان هو الانسان ، يختلف ، ويقتتل من أجل عرض الدنيا « فمتى تدرك الانسانية أن الشر لايجوزدفعه بالشر ، وان الحسنى هي المنهج الوحيد الذييجب أن يسير عليه البشر لحل المشـاكل ، والوصول الى الهدف الأسـمى الذي ينشدونـه ؟ متى يـدرك الناس ذلـك ؟ المتعلم منهم والأمي ، المثقف والجاهل ؟ ومتى يكون للحق وحـده السلطان والسطوة ؟؟ » أسئلة يطرحها كاتب الاقصوصة على نفسه في نهايتها ، ويجيب عليهـا بقوله : « قد يكون ذلك اليوم بعيدا ، ولكنه آت لاريب فيه (٥٦) » .

---

(٥٥) من مناهل الحياة من ص ٣ الى ص ١١ .

(٥٦) من مناهل الحياة من ص ١٠ و ١١ .

والأقصوصة الثانية اجتماعية ونفسية [٥٧] وهي بعنوان (سؤال) وهي خلاصة لحياة الكاتب الصعبة التي أدت الى التشاؤم ، ثم أعاده حادث الى التفاؤل فالسعادة ، فلماذا يضع سياجا من الضباب والقتام حوله ؟ ويشرف على هاوية القنوط ، وهو لا يزال في ربيع العمر وفي مقتبل سني الكفاح ؟ فالحياة في ألف خير ، واذا كان بطل الأقصوصة قد حرم نفسه حتى الآن من البحث عن بنت حلال تشاطره المصائب ، فان الوقت لم يفت بعد ، وسيجد زوجة تفهم روحه ، وتتعاون معه على العناية بوالديه المريضين ... وانفرجت اسارير وجهه عن مشروع ابتسامة راضية ، وشعر بمعنى جديد للحياة ، ووصل الى مكتبه ، فأكب على عمله سعيداً [٥٨] .

والأقصوصة الثالثة عاطفية [٥٩] ، وبطلها هو الكاتب نفسه ، وحوادثها تجري بين رجل وامرأة تنتحر عندما يعترف لها بأنه لا يحبها ، ثم يتظاهر بحبها لانقاذها من الموت ، ويتبين في النهاية أنه قد أصبح يحبها حباً أقرب الى الجنون ، وأن الحياة لن تطيب الا اذا جعلها شريكة حياته [٦٠] .

والأقصوصة الرابعة اجتماعية انسانية [٦١] ، ابطالها فرسان ثلاثة كان أحدهم يعمل دون كلل ، ويرى أنه ما من أحد يستطيع أن يقوم مقامه . ثم يتوفى مثبتاً « أن المقابر مليئة بالذين كانوا يحسبون أن الانسانية لا تستطيع الاستغناء عنهم [٦٢] » .

---

(٥٧) من مناهل الحياة ص ١٢ و ١٣ و ١٤ .

(٥٨) نهاية الاقصوصة الثانية ، من مناهل الحياة ص ١٤ .

(٥٩) بعنوان عروس غصبا عنه ، من ص ١٥ الى ص ١٨ .

(٦٠) اقصوصة عروس غصبا عنه ص ١٨ .

(٦١) بعنوان الفرسان الثلاثة ص ٩ او ٢٠ و ٢١ .

(٦٢) من نهاية الاقصوصة ص ٢١ .

وحوادث الأقصوصة الخامسة (٦٣) تجري بين سنتي ١٩٤٨ سنة اغتصاب فلسطين ، و١٩٥٥ عام كتابتها ، وهي أقصوصة قومية ، فيها حبكة موفقة نوعا ما ، وتجري حوادثها بين أحد أقطار المهجر وفلسطين ودمشق ، وتصور شاباً فلسطينياً ، ينتقم لوالدته التي قتلها الصهاينة بعد خمسة أعوام من مقتلها ، وذلك ببقائه في القدس ، وعمله لدى اليهود ، ثم بدسه السم لعدد من الضباط اليهود في أحد مطاعم المدينة المقدسة (٦٤) .

والأقصوصة السادسة اجتماعية عاطفية (٦٥) وحوادثها تجري في دمشق ، وبطلها ويغلب على الظن أنه الكاتب نفسه ، يعطف على فتاة تبيع أوراق اليانصيب ، فيعطيها ثمن الأوراق التي بعثرتها الريح ، ذلك الثمن الذي يشكل ثلاثة أرباع ثروته .

وواقع الغريب ، وهي السابعة (٦٦) ، أقصوصة عاطفية مؤثرة يروي فيها الكاتب قصة صديق له أحب فتاة حباً جماً ، ولما ماتت لم يستطع البقاء في الوطن ، فهاجر الى بلاد بعيدة ، الى أفريقية .

و (دستور السلطان) ، وهي في سبع صفحات (٦٧) ، أقصوصة اجتماعية ووطنية تدين الحكم العثماني وزبانيته ومنهم المختار ، وتصور الظلم الظالم الذي كان ينزل بالناس في العهد العثماني ، قبل اعلان الدستور زمن عبد الحميد في سنة ١٩٠٨ وبعده ، وذلك حسب رواية أحد المغتربين للمؤلف ، ذلك المغترب الذي بقي ، على الرغم من

---

(٦٣) بعنوان الشراب المسموم من ص ٢٢ الى ص ٢٦ .

(٦٤) الاقصوصة ص ٢٢ ، من مناهل الحياة .

(٦٥) عنوانها اوراق اليانصيب ص ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ .

(٦٦) ص ٣٠ و ٣١ و ٣٢ من مجموعة (من مناهل الحياة) .

(٦٧) من ص ٣٣ الى ص ٣٩ من مجموعة (من مناهل الحياة) .

المصاعب التي لقيها في وطنه ، يحن اليه حنينـاً يملك عليه عواطفه ، ويحمل شوقاً الى الوطن يدفعه الى أن يعود اليه بعد تصفية أعماله[٦٨] .

و (قلة حظ) اقصوصة طريفة تثير الابتسام [٦٩] ، وفيها يستخدم الكاتب شاباً يدعي أنه سيء الحظ مع من يعمل معهم ، ثم يتبين له أنه لص ماهر ، ولكن المؤلف كان أذكى منه ، وتصرف معه بدهاء .

و (لماذا آثرت العزوبة [٧٠]) أقصوصة هامة تشرح أسباب عـدم زواج بطلها ، ولعلها الأسباب نفسها التي دفعت الياس قنصل الى البقاء عزباً حتى وفاته . أحب بطلها في أول عهده بالشباب فتاة جميلة وأحبته ، ولكن ظروف الحياة المادية لم تسمح له بالزواج منها . وهاجر وبقي على اتصال بها ، ثم اخبرها ــ كذباً ــ بزواجه ، وطلب اليها أن تتزوج ففعلت ، ولكن روحه ظلت متعلقة بها . ثم التقيا في (المهجر) فوجدها في شـر حال خَلْقاً و خُلُقاً ، مما ترك في نفسه خيبة مرة . كان لا يقترب من الحب حرصاً على حبها ، وكان يعتبر الزواج من غيرها امتهاناً لذكراها . وهو اليوم يكره الزواج من خيبة أمله فيها [٧١] .

و (فتاة الشرفة) [٧٢] أقصوصة عاطفية ارتبط بطلها حباً بفتاة كانت تقف في شرفة طوال ثلاثة أشهر ، تقف جميلة متزينة تبتسم وتظهر له حبها . لقد اسعدته ، ثم القت الشـقاء في حياته ، بعد أن تبين له أنها كانت تعبث به ، وأنها مرتبطة بسـواه ، والكاتب هو البطل هنا أيضـاً .

---

(٦٨) نهاية الاقصوصة ص ٣٩ .

(٦٩) الاقصوصة الثامنة ص ٤٠ و ٤١ و ٤٢ من (مناهل الحياة) .

(٧٠) الاقصوصة التاسعة مـن ص ٤٣ الى ص ٥٠ مـن مجموعـة (من مناهل الحياة) .

(٧١) ص ٥٠ من مجموعة (من مناهل الحياة) .

(٧٢) الاقصوصة الحـادية عشرة ص ٥١ ومـا بعـد مـن مجموعـة (من مناهل الحياة) .

و (العين بالعين) [٧٣] ، أقصوصة بطلها انسان سريع الغضب ، حاد المزاج يتبين له في نهايتها أن التسامح والتساهل أجدى .

و (ابو البيانات) [٧٤] أطول أقاصيص المجموعة فهي تقع في احدى عشرة صفحة وتروي بطرافة حكاية بطلها ، وهو انسان كذاب دعيّ مزور سافل يحسن الكلام ، يدعي تارة أنه مسلم ، وأخرى أنه مسيحي يستدر عطف الناس ويحصل على المال . ثم يبدو على حقيقته في النهاية فاذا هو يهودي .

و (المسافرون) [٧٥] أقصوصة قصيرة بطلها انسان سمج ثقيل الظل يرافق الكاتب في سيارة من دمشق الى بيروت، ومع ذلك يؤكد في النهاية وجود حقيقة تقول : « ما من انسان على وجه الارض مهما كان ثقيلا سمجاً ، الا وفيه شيء من النفع للانسانية [٧٦] . »

و (الزنجية) [٧٧] أقصوصة غريبة غير واقعية بطلتها زنجية ، يحبها رجل أبيض ويتزوجها ، ولكنها بعد سنة تفر منه تاركة اياه في الشقاء والحيرة .

و (أصحاب المداس) [٧٨] ليست أقصوصة ، ولكنها حكاية ضمن مقالة تقارن بين الحضارة الغربية والحضارة العربية في الماضي ، وبين الحياة الاوربية والاميركية وحياة أجدادنا في الشرق ، مبرهنة على أن أجدادنا كانوا أسعد منا ، ومنتهية بهذه الخاتمة الحماسية [٧٩] :

---

(٧٣) الاقصوصة الثانية عشرة ص ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ (من مناهل الحياة)

(٧٤) الاقصوصة الثالثة عشرة من ص ٥٨ الى ص ٦٨ .

(٧٥) الاقصوصة الرابعة عشرة ص ٦٩ و ٧٠ .

(٧٦) ص ٧٠ من المصدر السابق .

(٧٧) الاقصوصة الخامسة عشرة من ص ٧١ الى ص ٧٤ .

(٧٨) الاقصوصة السادسة عشرة من ص ٧٥ الى ص ٨٢ .

(٧٩) الاقصوصة ٨١ و ٨٢ من مجموعة (من مناهل الحياة) .

« كانوا قديما يقضون الساعات وهم يتجادلون في قيمة حذاء ، ويأوون الى فرشهم ناعمي البال .

أما نحن – نحن الذين تصلهم أخبار العالم حال حدوثها ، نحن الذين يطالعون الجرائد ، ويتسمعون الى الراديو ، ويشهدون السينما ، نحن الذين لا تكاد تمر على اجتماعاتنا ساعة أو بعض ساعة حتى يشعر كل منا بالملل من رفيقه ، فيسعى للخلاص من رؤية وجهه ، ثم نأوي الى اسرتنا الوثيرة ، فتتجدد همومنا ، وتنقلب كأن كوابيس الدنيا على صدورنا ، لقد خنقتنا المدنية ياصاح ، لأننا لم نعرف استغلال حسناتها .

يخلق الاجتهاد والعلم وسيلة من وسائل الرفاه لنا ، فلا نتناولها من حيث يجب أن نتناولها ، بل نحولها الى هدف يختلف كل الاختلاف عما خلقت له ، نحولها الى زريعة لتضييق أفق الحياة .

أنا لست من دعاة القديم ، اني أعلم أن الحياة تسير الى الامام بخطوات سريعة ، وكل من يقصر عنها تتركه دون أن تحفل بشأنه ، ولكني لست كذلك من الراضين عن هذا الاضطراب النفسي الاليم الذي يسمونه (حضارة عصرية) .

اني أحمد الطمأنينة .. انني أرغب في العودة الى ارتشاف محاسن الاخلاق من أسلافنا . انني أدعو الى طلب الثروة ولكن بشرف .. انني أود التزود بالعلم ، ولكن العلم الذي يقربني من السعادة .. اني أحب التمتع بسائر الاطايب ، ولكن دون أن أدوس رقاب الناس في سبيل الوصول الى الاطايب .

رب هبني راحة الضمير التي كان أسلافنا بها ينعمون ، واجعلني طاهر الوجدان مثلهم . لقد بعنا نحن سلام الشرق بثلاثين من الفضة . اننا تعلقنا بأذيال الغرب ، وحاولنا أن نقتدي به ، فأعرضنا عن طعامنا ، ولم نستفد من طعامه .

كان في الدنيا رجل واحد لم تـغـْـو ِهِ الحضارة ، رجلَ عاش من طعامه عميان القلوب ، على هامش القرن العشرين .

ولكن كلمات هذا الرجل هزت مئات الملايين بين كارعي (الويسكي والشامبان) . كان هذا الرجل صورة لما كان عليه أسلافنا من البساطة مُضافة اليها حسنات العلم . غاندي . ألم يصلك خبره ؟

أسكنه الله الجنة وعلى أسلافنا رحمته الواسعة » .

و (قصة لم تكتمل) (٨٠) أجمل أقاصيص هذه المجموعة وأحسنها من الناحية القصصية . انها أقصوصة في رسالة ، يحكيها ــ بشاعرية ــ بطلها الذي أحب زميلة له في العمل حباً عميقاً ، وعندما التقى بها ، لم يعرف كيف يكلمها الكلام الذي تحب كل امرأة سماعه ممن تحب ، فكانت قصة لم تكتمل .

أما (دومنكو السكير) (٨١) فآخر أقاصيص المجموعة ، وتصور ايطالياً في المهجر يصحو أسبوعا ويسكر اسبوعا ، لذلك اشتهر باسم السكير ، وعندما عرف ذلك ، ترك الشراب فيما تبقى من حياته .

وهكذا تبدو هذه الاقاصيص ، على الرغم مما فيها من تقدم في الاسلوب والحوار ، والتقنية القصصية الفنية ... تبدو بعيدة عما يتطلبه الفن القصصي ... ففيها تعبير مباشر ، وفيها حوار قليل ، وليس فيها حبكة ، وفيها عناية بالاسلوب ، وفيها خطابية ، وفيها خواتيم تظهر العبرة منها والعظة . ولا تترك للقارىء تلمسها وطلبها .

الا أن فيها ، مع ذلك ، قرباً من الواقعية ، وفيها صورة صاحبها الياس قنصل ، فهو اما أن يعلن عن نفسه بطلا أو راويا ، واما أن يختبىء

---

(٨٠) من ص ٨٣ حتى ص ٩٢ من المجموعة ، وهي القصة السابعةعشرة.
(٨١) من ص ٩٣ الى ٩٦ من المجموعة .

وراء أحد الابطال الذين يخترعهم • لكننا وقد عرفنا حياته، وتفصيلاتها، وعرفنا أخلاقه عن قرب ، أخذنا نضع أيدينا على ما كتم بسرعة ، كما فعلنا ذلك حين لخصنا الاقاصيص •• أخذنا نضع أيدينا على الكاتب الذي حاول ان يقدم لنا تجاربه وحياته ، وأحداثها في قالب قصصي مستعيرا أبطالا كانوا صورة من ذاته حيناً ، وكان هو صورة لهم أحياناً•

ونحن قد أخذنا منها معرفة به على كل حال ، فهاهي ذي قصة (لماذا آثرت العزوبة) تقدم لنا بشكل صريح وجميل وشاعري ، الاسباب التي حَدَتْ بشاعرنا وأديبنا وانساننا العربي الياس قنصل الى أن يقلع عن الزواج ، ويعيش بعيدا عن رفقة حياة تؤنس وحدته ، فلقد أصيب بخيبة أمل مريرة ، حين رأى من أحبها وتخيلها ملاكا جميلا، تظهر على حقيقتها انسانة تافهة من أناسيّ هذه الارض •

- ٥ -

وننتقل بعد هذا الى القصة ، وهي تتناول القصة الطويلة وتشمل لدى كرم ملحم كرم القصة والرواية ، لأنه يعرف الاقصوصة بأنها « حكاية لاتتجاوز بضع صفحات من كتاب ، أو بضعة حقول من نشرة سياسية [٩٢] • » أما القصة فهي التي تطول ، والتي فيها حوادث متعددة وفصول تستدعي الارتباط [٩٢] • أما الياس قنصل فنجد بين آثاره مؤلفات يطلق عليها اسم قصة ، ومؤلفَينْ يطلق عليهما اسم رواية ، ونرى أن (في مهب الريح) رواية لا قصة ، نتكلم عنها بالتفصيل بعد قليل •

---

(٩٢) مجلة المناهل ، العدد الاول نيسان ١٩٣٧ .

(٩٣) ملحقة بروايته (في مهب الريح) ص ٢١٥ ، ولصوص الشرف في القائمة الملحقة بقصة غالب افندي المغلوب .

في قائمة كتب الياس قنصل [٩٣] المطبوعة ستة مؤلفات يطلق على كل منها اسم قصة ، وهي (صديقي أبو حسن ١٩٣٧ ، في سبيل الحرية ١٩٣٩ ـ لصوص الشرف ١٩٤١ ، دولة المجانين ١٩٥٥ ، غالب افندي ١٩٥٥ ، وفلسفة حمار ١٩٥٥) نخرج منها (في سبيل الحرية) لانها كما سجل على غلافها (خلاصة روايـة تمثيلية للكاتب الفـرنسي فرانسوا كوبيه ، وهي مترجمة جرت احداثها في احدى مقاطعات ايطاليا في القرن الخامس عشر [٩٤]) • ويبقى بعد هـذا خمس قصص ، طبعت اثنتان منها في الارجنتين ، وطبعت الثلاث الباقيات في دمشق ، ونشير الى أن (لصوص الشرف) يطلق عليها (رواية) في قائمة كتبه المطبوعة الملحقة بقصة غالب افندي [٩٥] •

أما قائمة مؤلفاته المخطوطة [٩٥] ، فتضم خمسة كتب أطلق عليها اسم قصة وهي (أحلام • الوثيقة المزورة ، حنان ، بين معارك الثورة ، العبقري المجنون) وسادسة أطلق عليها صفة (قصة حياة) ، وهي بعنوان (هذا أنا) ولعلها قصة حياة الياس قنصـل نفسه •

لم يتح لنا الاطـلاع على قصصه (صديقي أبو حسن ، ودولة المجانين ، ولصوص الشرف) ، لعدم توفرها في مكتبات حلب ، الا أن جورج صيـدح يعطينـا فكرة سريعـة عن (صديقي أبـو حسن) فيقول [٩٦] : « تقرأ لـه قصة (صديقي أبو حسن) فتتمنى لو طالت أضعاف ما هي ، لأنك تخرج من كل فصل بمتعة أو عظـة » • وفكرة أخرى عن قصة (دولة المجانين) فيقول [٩٦] : « وتقرأ حكاياته في دولة المجانين ، فتأخذك نشوة المرح ، حتى لتشد على خاصرتيك قبل أن يرضرضهما الضحك ، لا سيما عندما تصل الى سائق الحافلـة ذي

---

(٩٤) أخرجتها مجلة المناهل الشهرية ، الارجنتين تموز ١٩٣٩ .

(٩٥) ملحقة بروايته (في مهب الريح) ص ٢١٤ .

(٩٦) جورج صيدح ، أدبنا وادباؤنا ، ص ٦٢٧ .

الشاربين الطويلين العريضين اللذين لو باعهما بالكيلو لما احتاج الى العمل بقية حياته . »

ان هذا النص يعني أن دولة المجانين (حكايات) ، فهل هي قصة تضم حكايات يربط بينها خيط قصصي ، أم أنها حكايات متفرقة ؟ لسنا ندري ، فنص صيدح أمامنا يشير الى أنها حكايات ، والمؤلف يشير الى جانب اسمها أنها (قصة) .

اننا نملك فقط قصة (غالب أفندي المغلوب) و (فلسفة حمار)(٩٧)، فلنكتف بهما ، ولنقدم عن كل منهما مجموعة من الملاحظات :

غالب أفندي المغلوب قصة تقع في تسع وعشرين ومائة صفحة من القطع المتوسط ، وقد أهداها (الى الاقطاعية التي تحتضر في بلادي ، مشيعة باللعنات ، لعنة جديدة على تاريخها)(٩٨) . والقصة لا تصور الاقطاع ولكن حياة رجل مدع مغرور يتوهم أنه من طبقة الاقطاعيين لانه ورث لقباً دفعه الى تقليد من يحملونه .

يسجل المؤلف في مفتتح الكتاب (٩٩) ، أنه كتب هذه القصة وهو في مغتربه في الارجنتين ويصر على أنها قصة واقعية . على أننا ، وقد قرأناها بامعان ، نلمح فيها أشياء كثيرة واقعية ، ونجد فيها أمورا كثيرة لا يمكن أن تقع في الحياة ، ففي القصة أحداث يمكن أن نصادفها ، وأخرى بعيدة جدا عن الحياة . فلنلق نظرة على محتواها ، ولنلخصها بعد هذا ، ولنصدر في النهاية حكمنا عليها .

تتألف القصة من خمسة وعشرين قسما ، أعطاها عناوين تدل على محتواها . وتتفاوت هذه الاقسام ، فبعضها يتألف من

---

(٩٧) نشر دار الرواد بدمشق عام ١٩٥٥ .

(٩٨) كما سجل على صفحة غلافها الاول ، ومن الصفحة ٢ منها .

(٩٩) قصة غالب افندي المغلوب ص ٣ .

صفحتين [١٠٠] ، وبعضها الآخر من ثلاث [١٠١] وقد يصل احدها الى ثلاث عشرة صفحة [١٠٢] ، ويكاد بعض أقسامها يشكل حكايـة خاصة • ومعظم هذه الاقسام مواقف تصور حياة بطل القصة في القرية أولا ، ثم في المهجر ثانيا ، أحداث تخلق بعض التفكك في سير القصة الا أن أمورا ثلاثة تربط بينها : أولها بطل القصة (غالب أفندي) فالاحـداث كلها تدور حوله ، وثانيها : راوي القصة ، وثالثها هذه الروح الفكهة التي تشيع في القصة ، والتي نجمت عن أحداثها المضحكة ، وعن اسلوبها المـرح •

وتتلخص القصة هذه بما يلي :

يستلم المؤلف ، راوي القصة ، في مهجره بالأرجنتين ، رسالـة من قريته يعلن مراسلها (غالب أفندي المغلوب) انه قادم الى المهجر • « لزيارة أبناء الوطن المقيمين فيه ، لجمع كلمتهم ، واصلاح شؤونهم ، ورفع مستواهم المادي والأدبي والاجتمـاعي [١٠٣] • » ويطلب منه اذاعة هذا الخبر ، والاستعـداد لاستقبـاله •

ويستعيد المؤلف بذاكرته (غالب افندي المغلوب) الذي كان زميلا غبيا له في المدرسة ، والذي كان متكبرا ، يصر على لقب (أفندي) اصرارا عجيبا ، هذا اللقب الذي اشتراه جده غلبان المغلوب من موظف تركي بمبلغ كبير من المال ، ثم تلقـاه بموجب (فرمـان) صادر عن السلطان ، فرمان قلب حياته ومظهره فنقله من فلاح الى (أفندي) • وورث ابنه هذا اللقب وحرص عليه الحرص كله ، ثم ورّثه ابنه غالباً

---

(١٠٠) كالقسم الاخير ص ١٢٨ و ١٢٩ ، وهو بعنوان في المرفأ من جديد.

(١٠١) كالقسم الاول ص ٣ و ٤ و ٥ ، وهو بعنوان رسالة من الوطن .

(١٠٢) كالقسم الثاني وهو بعنوان (نسب غالب افندي) ص ص الى ص ١٨

(١٠٣) قصة غالب افندي المغلوب ص ٤ •

الذي كان في المدرسة موضع سخرية زملائه وأترابه ، والذي لم يمنع غباؤه من ارساله الى المدارس العليا .

ولم يكتف غالب بارسال الرسالة ، بل عززها بثانية مدعمة برسوم له احداها تمثله في مكتبه ، وثانية في بزته العسكرية ، والثالثة في مشهد صيد ، والرابعة في مجلس شراب ، والخامسة في معمله الكيماوي . وكلها رسوم تثير السخرية والضحك .

وانتظره المؤلف ، راوي القصة ، في المرفأ ، ولما وصل قدم صورته لنا « فهو مربوع القامة ، معتدل السمنة ، حليق اللحية والشاربين ، له وجه يكاد يكون مربعا ، فذقنه عريضة مبطوحة كأن الله ، لما براه ، ملسها بيديه طويلا ، وجبينه مقطب ، ولم يحترم شعر رأسه حدوده الطبيعية فاقتحم صدغيه ، ولم يترك الا نسخة صغيرة فوق حاجبيه الغزيرين ، وعيناه الرماديتان صغيرتان ، وشفته السفلى تتدلى قليلا الى الامام لثقلها ، وبين أسنانه المتراصة ، سن نافرة ، خافت مزاحمة رفيقاتها لها ، فشاءت أن تتنفس على هواها . أما أذناه فطويلتان طولا يسترعي الانتباه ، وقد انبسطت منها الاطراف كأيدي الشحاذين على أبواب المعابد ، واشتبكت تعاريج الجلد فيها اشتباكا ملولبا حتى لتكاد تحسب كل أذن شقة ليمونة معصورة (١٠٤) . »

ثم يروي بسخرية اصراره على حمل حقيبة له خاصة ، واصراره كذلك على ألا يدخل المدينة الا بعد أن يرحب به المستقبلون ، فيضطر المؤلف الى استئجار ثلاثة عمال ، قدمهم على أنهم من أعيان الجالية وقد أتوا للترحيب به .

ثم يشرح المؤلف في قسم خاص (الفرمان) ، انه قطعة من الورق مكتوبة باللغة التركية ، وفيها شرح (لطريقة جديدة لطبخ الملفوف) ،

---

(١٠٤) قصة غالب افندي المغلوب ص ٢٧ و ٢٨ .

ويكون قد سرقها المؤلف وأخذها لصديق له يعرف التركية ، ولما عادالى الفندق ، حيث ينزل غالب افندي ، وجد هذا الاخير شبه مجنون لأنه لم يجد فرمان (أفنديته) ، مما دفعه الى الصياح واقلاق الفندق ، فاضطر أصحابه الى الاصرار على ابعاده عنه ، مما دفع الكاتب الى ايوائه في داره •

ويقدم لنا المؤلف (عظمة غالب افندي) فهو عليم بكل شيء ، بالتربية وبأنواع السجاد ، وبالتاريخ ، وهو بطل ثورة عام ١٩٢٥ ، بل أنه دعي مرة لتأليف الوزارة فلم يقبل ، وهو يعرف اللغة القبطية ، وسيخترع نوعاً جديدا من المعكرونة ، وهو كذاب كذاب ، مضحك يغرق أصحابه في الضحك لادعاءاته وغروره •

أما نوم غالب أفندي فعجيب ، ترافقه أنواع مختلفة من الشخير يبدأ كل نوع منها في ساعة معينة من الليل • يكون الافتتاح بالصفير ، ثم يتحول الى ما يشبه نباح الكلب ، ثم يغدو كخشخشة قواطر الحديد ، وينقلب بعدها الى الشغب الذي يسمعه المرء في مطابع الجرائد •• ثم يستريح ساعة ، يتحول شخيره بعدها الى صوت مماثل لصوت نشر الخشب ، ثم يغدو كحركة الفئران التي تقرض الورق ، ثم يتحول الى أنات متقطعة ، ويغدو مع الصباح نغمات متناسقة تؤلف (كلمة فرمان ، فرمان فرمان) ••

وأكله غريب يبدأ بالحساء ، ثم يمزج بأنواع الطعام كلها في صحن واحد ، « ويباشر بالتهامها بلا هدنة » ثم يطلب الحساء ثانية ، وينثر عليه السكر ويعجنه بالملعقة ثم يأكله ••

ويحاول (غالب افندي) أن يجمع شيئا من المال استيفاء لبطاقات تباع للاستماع لمحاضرة يلقيها على الجالية ، ولكنه يعدل عن ذلك بعد أن ربح في يانصيب مبلغا من المال ، اشترى بجزء ضئيل منه مسدساً

قديما ، وتمثالا من البرونز يمثل امرأة عارية ترقص ، ونظارتي شمس لون زجاجهما خمري ، وقفصا خشبيا فيه عصفور مريض ، وشمسية حرير نسائية ، وحذاء لماع الوجه ، مخملي الجوانب ، قديم الطراز ، له صرير يشبه انقصاف خشبة جديدة . ثم يصور نفسه في صور عديدة تمثله مع زعماء الارجنتين ، صور كتب عليها شروحا وافية وارسلها الى الوطن .

وانقلب (غالب افندي) بعد أن أصبح غنيا رأساً على عقب : أصبح لا يرضى الا بأنواع معينة من الطعام ، وصار ينسب لنفسه بطولات الحكايات التي يسمعها من جلسائه ، ويلعب مع الاطفال الصغار في حديقة مخصصة لهم ، ويدعي النهم في الميكانيك ، فيفكك المذياع ويعطله ، ويدعي الشجاعة فيفكر في وجود الاشباح والارواح ، ثم تصطك ركبتاه بعد أن عبث به المؤلف وأصحابه .

وتعرف غالب افندي على نسيب له مهاجر ، فزاره مع كاتب القصة فلقيا من اولاد ذلك النسيب عبثاً ما بعده عبث ، ثم رضي أن توضع رسومه اعلاناً عن مبيد للصراصير ، في كراس ، أرسل نسخاً منه الى الوطن على أنها : « نص المحاضرة التي القاها غالب افندي المغلوب في أحد مسارح بوينس آيرس باللغة الاسبانية وموضوعها (كيف يكون الناس بعد ألف عام) ، وقد حضرتها الجماهير وتحمست لها حماسة معدومة النظير ، وتكفلت الحكومة بطبعها ، وتوزيعها ، تعميماً لفائدتها [١٠٥] . »

وتمضي القصة بعد هذا فتفاجئنا بغياب غالب افندي ، ومعهخادمة مؤلف القصة (طنافس) وبفراغ حجرة غالب أفندي من أثاثها ، وبتركه رسالة يشرح فيها كل شيء : لقد أحب الخادمة ، وفر معها الى

---

(١٠٥) قصة غالب افندي المغلوب ص ١٠٢ .

مكان مجهول . ليعيشا معا ، وبأنه حمل معه أثاث الغرفة تذكارا ، وبأنه أرسل الى زوج طنافس رسالة « يخبره فيهـا بالواقع ، ويخفف عنه الصدمـة التي يستأهلهـا [١٠٦] . » ذلك الزوج الذي يزور المؤلف في اليوم التالي مستخبرا عن زوجه ، ومهددا ومتوعدا بأنه سيفتش عنهما ، وسيتولى الثأر منهما بنفسه . أما المؤلف وأصدقاؤه فيقضون ليلتهم ضاحكين من غالب أفندي الذي لم يراع حرمة مضيفه فسرق أثاثه وفر مع خادمته التي شغفته حباً ، مع أنها متزوجة ، وأكبر منه سناً ، وليس لها من الحسنات التي تشوق سوى عضلاتهـا القويـة .

ومرت أشهر ثلاثة ، وجد المؤلف في نهايتها (غالب أفندي) يدخل عليه وهو في شر حال : فهو ليس شخصا من لحم ودم ، وانما هو روح فقط ، أما جسمه فعليه آثار عديدة ناتجة عن معركـة . ويعلن غـالب أفندي عن تسمية جديدة له هي (غالب الحمار) ، ويقص عليه قصته منذ ترك منزله : لقد عاش سعيدا مع الخادمة ، حتى التقى بنسيبه الذي احتال عليه ، واستولى على أمواله موهما اياه بأنـه سيشتري آلة نسيج تدر عليهما الارباح الطائلة ، ثم فرَّ بها الى مكان مجهول ، تاركاً ايـاه للفقر ، ولسوء معاملة الخادمة طنافس التي تغيرت أخلاقها ، حين علمت بأنه غدا فقيراً ، فأخذت تعامله شر معاملة ، مجبرة اياه على القيام بأعمال المنزل ، وممزقةً (فرمان افنديته) ، وضاربة ولاكمة وعاضة اياه بعد أن رفض ايجاد عمل ، ممـا اضطره الى الفرار منها ، والعودة الى المؤلف شاكياً باكياً ،ومعتذرا اليه عما بدر منه . وبينما هما كذلك ، يقرع زوج الخادمة الباب سائلا عن زوجه وعن عشيقها ، ومهدداً ومتوعداً : انه متى عثر عليهما ، سيذبحهما ، بعد ان يعذبهما عذاباً مبرحاً ، مما يدفع بالمؤلف الى تهدئته ، وصرفه بعد ان خبأ غالب افندي ، الذي كاد الخوف يقتله ،

---

(١٠٦) قصة غالب أفندي المغلوب ص ١٠٨ .

والذي عول على العودة الى الوطن ، ورجا المؤلف بالحاح ان ييسر له ذلك .

وتنتهي القصة بالقسم الأخير منها : ها هو ذا غالب افندي (في المرفأ من جديد) يعود الى الوطن في شر حال : فبعد ان ذاق عسل الحظ والسعادة وغدا غنيا ، وعاش مع من يحب ، تجرع كؤوس العلقم المرير ، وأصبح فقيرا ، يتبرع له أصدقاؤه ومنهم المؤلف ، بثمن بطاقة السفر وبتكاليف العودة ، في الدرجة الثالثة من الباخرة .

ووقف الجميع يودعونه ، وارتفعت الأيدي بالوداع الأخير ، وابتعدت الباخرة عن الميناء ، ليظهر في ذلك الوقت زوج الخادمة ، الذي جن جنونه عندما علم ان غريمه ، غالب افندي ، قد هرب ، وانه لم يتح له ان يثأر منه مما يحدو بالمؤلف ان يدس له في جيبه مبلغا من المال يكفي لتهدئة ثائرة غضبة[١٠٧] » .

هذا هو ملخص قصة (غالب افندي المغلوب) ، قدمناه بشيء من الايجاز الوافي ليعطي فكرة واضحة عنه تسمح لنا أن نقدم فيما يلي تقويما للقصة من الناحية الفنية .

موضوع القصة اجتماعي يوجه فيه الكاتب انتقاداته الى الطبقة الاقطاعية أو الى أولئك الأفراد الذين يتخذون من أبناء هذه الطبقة مثلاً أعلى ونموذجاً أكمل ، يحذون حذوه ، على الرغم من الزيف الذي يسود حياتهم وعلى الرغم من تعلقهم بالقشور والمظاهر البراقة الفارغة التي تخفي تحتها خواءً وأنفساً هزيلة ليس فيها غناء ، وأدمغة محدودة الأبعاد تدور حول مركز واحد لاتتعداه : انه عبادة الذات ، والأنانية ، والتعاظم الفارغ ، والترفع الغبي ... والغاية لديهم تبرر الوسيلة ، وغالباً ما يكون الكذب هو الوسيلة ولو كان كذبا

(١٠٧) آخر جملة في (غالب افندي المغلوب) ص ١٢٩ .

مفضوحاً ... هكذا رسم الياس قنصل صورة واحد من مقلدي الطبقة الاقطاعية ، فكان موفقاً جداً في رسم تلك الصورة ، مبدعاً في تحليلها ، وفي ايضاح جوانبها النفسية المتهافتة ، وأبعادها الفكرية الضحلة ، ومفاهيمها الاجتماعية المهترئة . ولا شك أن الكاتب قد أصاب الهدف ، فهدفه من القصة اثارة سخرية القارىء بالطبقة التي يكشف زيفها وتفاهتها .

ولعل أفضل عناصر القصة هنا ، عنصر الشخصية ، فقد رسم المؤلف شخصية (غالب أفندي) رسماً دقيقاً ، ووصف تصرفاته وصفاً ضافياً بحيث لم يدع زيادة لمستزيد ، مستخدماً لغة دقيقة ساخرة قريبة من الأفهام ، بل لعلها اللغة الدارجة ذاتها في كثير من الاحيان ، مما جعلها ــ على هشاشتها ، نابضة بالحياة ، زاخرة بالواقعية ، فكم من موقف أثار في خيالنا لوحة حية نراها ونسمعها ونعايش شخصياتها ، ونضحك معها بصوت عال .. وعلى الرغم من طريقة السرد والتعليق البدائية التي لجأ اليها الكاتب لسهولتها أولاً ، ولأنها الطريقة السائدة يومذاك ثانياً ، فان القصة تشد القارىء ، وكأن هذا الخيط الساخر الذي ساد القصة كان قادراً على اثارة اهتمامه حتى النهاية ... أما حبكة القصة فقد أضعفها هذا التقسيم الذي لجأ اليه مع اعطائه عنواناً لكل قسم ، فكأن روح المقالة كانت تشد الكاتب اليها بعفوية بحيث ينسى أنه يؤلف قصة !!! غير أن نقطة الضعف الكبرى كانت (العقدة) ، فهي ضائعة ، أو هي على أحسن تقدير هزيلة لم ترسم تحولاً ولم تثر تساؤلاً كبيراً ، والقارىء لا بد أن يعرف ما جرى وما سيجري ببساطة متناهية .. ان هذا كله قد جعل القصة أقرب ما تكون الى ما يسمى « بالصورة الشخصية » نعم ! هذه هي التسمية الصحيحة : فالكاتب يترجم لشخصية يقول انها واقعية ، راسماً اياها رسماً كاريكاتوريا دقيقا ناجحا يثير الضحك ، في لوحات أو مواقف

ساخرة متتابعة .. ويمكننا القول ان قيمة القصة ــ من الناحية الفنية ــ لم تبلغ المستوى الأدبي الذي يتميز به الأديب الياس قنصل . على أن أبرز عناصرها الوصف الناجح الدقيق ، والعرض الواقعي الـذي يرسم كلاً من الشخصية والبيئة رسماً رائعاً ، واللغة الساخرة ، المناسبة والقريبة من الذهن والنفس على السواء ...

- ٦ -

و (فلسفة حمار [١٠٨]) قصة ــ حسب القائمة التي ألحقها المؤلف بأحد كتبه في عام ١٩٧٢ [١٠٩] ، وهي (فصول) على غلافها ، و (أحاديث واقعية) في احدى صفحاتها [١١٠] . والصفة الاخيرة هي خير ما يمكن أن توصف به ، انها أحاديث غير واقعية ، يجمعها خيط حكاية . لذلك لن نقف عندها طويلا مشيرين فقط الى ملخصها ، والى أن فيها بعض عناصر القصة من حوار وأحداث ..

وخلاصتها أن مؤلفها عثر على كتاب عنوانه (كيف تتعلم لغة الحمير في مدة قصيرة) ، فتعلمها ، ثم اشترى حمارا ، جرت بينه وبين الكاتب هذه الاحاديث .

والحمار صاحب هذه الفلسفة ، انسان يتحدث ويبدي آراءه (وهي آراء المؤلف بالطبع) في كثير من قضايا الحياة الانسانية ، مع اجراء مقارنات بين حياة الحيوانات بصورة عامة ، والحمار بصورة خاصة ، وبين حياة الانسان .

---

(١٠٨) دار الرواد ــ دمشق ص ١٩٥٥ .

(١٠٩) ملحقة بروايته (في مهب الريح) ص ٢١٥ .

(١١٠) ص ٥ من (فلسفة حمار) .

ينفق المؤلف خمساً وعشرين صفحة في التمهيد لهذه الاحاديث[111]، ثم يقدم لنا سيرة الحمار وقصة حياته[112] ، ثم يبدأ في بيان رأيه في (اللغويين) والطبقات ، وعدم تميز الانسان عن سائر مخلوقات الله ، ثم في مظاهر الحضارة كالزمن ، والفرح للولادة والبكاء عند الموت ، والرياضة والرقص والزواج ، ويحمل على آراء الانسان في كروية الارض ، والجاذبية ، والشهادات . وعلى مساوىء بعض العلوم كالطب، وعلى المتشاعرين والناظمين ، وعلى الملاكمة والمصارعة ، وعلى الحرب ، وعلى سوء أخلاق الانسان وأنانيته منذ قتل قابيل هابيل ، وظلمه وحبسه الحرية عن الآخرين ، وسوء معاملته للحيوانات ، وتشويه سمعتها ، مع أنها أفضل من الانسان في أمور كثيرة . ثم يظهر سخف الانسان في اتخاذ بطاقة هوية ، وفي ادعائه أنه أصغر عمرا مما هو عليه، وفي انتخابه الرؤساء ولو كان ذلك بزيادة صوت واحد ، ويقارن بين حياة الانسان وحياة الحمير ، ويفضل الثانية ، حيث لا توجد أحزاب تتناحر ، ولا مال يعبد ، ولا غرام كاذب ، ولا ورق يتخذ نقدا ، ولا استغلال للآخرين ولا مشروبات ، ولا فلسفة ، ولا تشاؤم . بل حياة سهلة صحيحة متفائلة ، يقدم الحمار فيها خدمات جلى للانسان ، ومع هذا فكم ظلم الانسان هذا الحيوان، وكم سخر منه الشعراء ظلماً وبهتانا ..

وتنتهي هذه الاحاديث بقول الكاتب انه قد روى بعضها ، وكتم بعضها الآخر ، لأن فيها ما يمس شخصيات عظيمة ما تزال على قيد الحياة ، ومنها من يتولى مناصب رفيعة في دول كبيرة[113] .

---

(١١١) من ص ٥ الى ص ٢٩ من (فلسفة حمار) .

(١١٢) من ص ٢٩ الى ص ٣٥ من (فلسفة حمار) .

(١١٣) ص ١١١ من فلسفة حمار ، وهي آخر صفحات الكتاب .

- ٧ -

والرواية النوع الثالث من أنواع الفن القصصي الذي عالجه الياس قنصل . وقد ترك لنا روايتين : أولاهما (على ضفاف بردى) ، وهو يسميها رواية في جميع القوائم التي ألحقها بكتبه ، وثانيتهما (في مهب الريح) وهو يسميها قصة مع أن عدد صفحاتها وشخصياتها وأحداثها تؤهلها لتكون رواية .

لم يتح لنا ، مع الأسف ، الاطلاع على رواية (على ضفاف بردى) كاملة ، لأننا لم نعثر عليها مطبوعة في كتاب ، بل عثرنا على خمسة فصول منها (هي الاول والثاني والسابع والثامن والتاسع) منشورة مسلسلة في خمسة من أعداد مجلة المناهل [١١٤] ، ومن هذا نستدل أن الكاتب قد نشرها مسلسلة في المناهل ، ثم جمعها في كتاب ، كما هو مذكور في قائمة كتبه المطبوعة .

ان الفصول الخمسة التي قرأناها تعطينا ، على كل حال ، فكرة عن مضمونها ، وعن أسلوبها القصصي الفني ، ففيها مساران أولهما وطني قومي يصور نضال الشعب العربي في سورية عام ١٩٣٦ : الاضراب الذي استمر ستين يوما ، وما رافقه من جهاد ومظاهرات ومسيرات ، ضد الاستعمار الفرنسي ، الذي حاول طوال هذه المدة أن يقمع ذلك بالقوة ، ولكنه فشل ، واضطرت السلطة الفرنسية في نهايته الى التراجع ، والى اطلاق سراح المعتقلين ، والاعلان عن قبول سفر وفد الى باريس للمفاوضة التي انتهت بتوقيع معاهدة عام ١٩٣٦ التي اعترفت باستقلال سورية ووحدتها واجراء انتخابات فاز فيها الوطنيون .

---

(١١٤) هي الاعداد الثالث والرابع والتاسع والعاشر والحادي عشر من مجلة المناهل ، حزيران وتموز وكانون الاول ١٩٣٧ ، وكانون الثاني وشباط ١٩٣٨ .

أما المسار الثاني فحب بطلي القصة شكيب وصلاح ، أما شكيب فيخفق في الزواج من حبيبته لأن لكل منهما ديناً يختلف عن الآخر ، ومع هذا يبقى حبهما قويا مشتعلا ، بينما تتاح لصلاح السعادة بمن يحب لأنهما من دين واحد ، وتوحي الفصول التي قرأناها بـأن ذلك الحب ينتهي بالزواج .

(على ضفاف بردى) أبعد ما تكون عن أن تسمى (رواية) من الناحية الفنية القصصية ، انها أشبه ما تكون بتحقيقات صحفية تصور أحداثاً وقعت في دمشق خلال ما أسماه الكاتب (الاعتصاب) الشهير الطويل فيها . ان الاحـداث العاطفية التي رافقت هذه التحقيقات ، وصورت حبين قاما بين أبطالهـا الاربعة ، قـد منحت تلك التحقيقات جواً قريباً من الجو القصصي ، ولكنها كانت أحداثاً ساذجة تفتقر الى الحبكة المحكمة ، والحوار المتقن ، وتصوير تطور الشخصيات ؛ حتى يمكننا اضفاء لقب (الرواية) عليها .

تبقى لقصة (على ضفاف بردى) ، على كل حال ، قيمتها التسجيلية الواقعية التي استطاعت أن تصور لنا أحداثا وطنية وقومية في ذلك العام المشهور من أعوام نضـال الشعب العربي في سورية ضد الاستعمار الفرنسي ، تلك القيمة التي بها استطاع الياس قنصل ، أن يدخلها حرم الادب حين ضمنها ذلك المسار العاطفي الغرامي الذي منحها شيئا من الحياة ، ومن الفنية القصصية الساذجـة ، على كل حال .

وتبقى هذه الفصول ، قبل ذلك كله ، بما تحمله من حرارة عاطفة الكاتب الوطنية ، وحبه وطنه الصغير ، واعتزازه بنضاله وببطولته ، واشادته بشهدائه الذين سقطوا قرابين على مذبحة ، دليلا لا يدحض على مقاومة لا تضعف طلبا للحرية والاستقـلال .

ولعل في قراءتنا للاسطر التالية الواردة في الرواية ، دلائل واضحة على ما قدمنا : « خمسون يوما في الاعتصاب المديد، والجهد العنيف ، والتضحية الغالية ! تلك هي الصرخة الداوية التي لفظتها دمشق في أوائل العام الماضي ، فاخترقت سمعاً من الباطـل اعتاد بأن يتصام ، وأعادت الى الوطن حقا كاد اليأس يقضي عليه ، ونقشت على أفق الخلود صفحات ملؤها المجـد .

خمسون يوما انبثت فيها ميزة على سائر الايام فجابهت كل ساعة من ساعاتها فيلقاً ضخماً تقوده عداوة الجائر ، وجالدت كل دقيقة من دقائقها مدفعاً جباراً يطلقه عتو الغاصب ، وتصدرت كل ثانية من ثوانيها لقنابل يقذف بها حقد الغريـب .

خمسون يوما أثبتت أن السوريين أحفاد أولئكم الصناديد الذين كانت كلمة أي منهم تكفي لزعزعة أركان مملكة ، اذ تخرج من فؤاد عامر بالايمان ، ونفس مشبعة بالثقة ، ونشـاط مستمد من الصبر ، وعزيمة تقول لصرف الدهر مكانـك ! فيقف . »

وواضح أن هذا التعليق على الاحداث ــ على ما فيه من جمال في الاسلوب ــ شبيه بالخطابة ، ويعتبر عيباً كبيراً في مجال الفن القصصي.

- ٨ -

(في مهب الريح) رواية طويلة تقع في مئتي صفحة ونيف من القطع المتوسط ، وتجرى أحداثها في قرية قريبة من دمشق (شبيهة بالقرية التي ولد فيها المؤلف وعاش طفولته) ، وفي العهد العثماني بدءاً من عام ١٨٧١ ـ كما سجل في الصفحة الاولى منها ـ كما أن بعضا من حوادثها تجري في دمشق ذاتها .

والرواية تقع في أربعة فصول يسمي المؤلف كلا منها (جزءاً) فالاول بعنوان مدار الهوى [١١٦] ، والثاني بعنوان : معترك الشام [١١٧] ، والثالث بعنوان : أرجوحة الحظ [١١٨] ، والرابع بعنوان : دفتر الخلود [١١٩] .

تصور الرواية حباً يعتمر في قلب بطلها (عساف دردش) ، وهو ابن فلاح فقير من الحارة الغربية من احدى القرى ، تجاه سلمى بنت منصور سركيس من الحارة الشرقية .. ولما كان هناك تنافس بين الحارتين ، فقد كان محرماً على عساف أن يحب سلمى ، لذلك يُعِدُّ شباب حارة المحبوبة له كميناً في الليل ويعتدون عليه بالضرب المبرح الذي يطرحه في الفراش عدة أيام ، يترك القرية بعدها الى دمشق ، مع صديق له .

---

(١١٥) ١ و ٢ و ٣ من الجزء الثالث من المناهل ، عدد حزيران ١٩٣٧ .

(١١٦) ص ٣ من رواية (في مهب الريح) .

(١١٧) ص ٤٣ من رواية (في مهب الريح) .

(١١٨) ص ٩٥ من رواية (في مهب الريح) .

وفي دمشق يعمل الصديقـان عملا متواصلا ، ويعيشـان حياة متواضعة ، ويجمعان مبلغا لا بأس به من المال ، يعودان به الى قريتهما. ويتقدم عساف لخطبة سلمى ، فيوافق أهلها اولا ، ثم يعتذرون بعد ان تقدم لخطبتها آخر من حارتهم أغنى منه . فيتألم عساف ألماً كبيراً ، وينكب على العمل في حقله ، وفي أرض اشتراها بالمبلغ الذي ادخره من عمله في دمشـق .

وتحمل له (أرجوحة الحظ) كنزا ذهبيا يجده مدفونا في الارض التي اشتراها ، كنزاً تصرف به بدهاء ، وباع (ليراته الذهبية) بتؤدة في دمشق محولا اياها الى عملة دارجة جعلته أغنى أغنياء المنطقة .

على أن مضي الزمن ، وزواج مـن يحب ، وغناه ، ونجاحه في السياسة حين انتخب مختار قريته ، وفي كسب قلوب الناس واحترامهم لكرمه وحسن أخلاقه وذكائه في حل مشاكلهم .. كل ذلك لم ينسه حبه القديم الذي كان يزداد مع الايام شدة وعمقا ، تلك الايام التي تتكفل بحـل أزمته ، حين يرتكب زوج حبيبته جريمة قتل ، يطـارده اثرها رجال الامن ، فيسقط من فوق جدار عال في أثناء هربه ، ويموت متأثرا بجراحـه .

وهكذا تجد الرواية حلا لعقدتها ، فما ان تمضى مدة من الزمن حتى يتقدم عساف من حبيبته طالبا الزواج منها ، وهذا ما يتم بالفعل ، اذ تنتهي الرواية ، وقد نال بطلها ما يريد ، فتزوج ممن يحب بعد حفلات استمرت اسبوعا ، عاش فيها أهل القرية ناعمين بما قدمه لهم (عساف دردش) بطل الرواية من أفانين الطعام والشراب .

بذلك تقترب (في مهب الريح) من احدى قصص الف ليلة وليلة : حب بين حبيبين يفرق المجتمع والمال بينهما ، ثم يغتني العاشق بعد عثوره

على كنز ، ويضرب الدهر بحادثة مأساوية زوج الحبيبة ، ليعود فيجمع بينهما في نهاية سعيدة لقصة تعذب بطلاها بتأثير العادات الاجتماعية السيئة ، وتظهر لنا بوضوح المفاهيم القديمة ذاتهــا ، فالمؤلف لا يدين المال ، ولا يدين ما يثيره من فروق بين الناس ، ومن مآس في حياتهم ، بل يتخذه وسيلة وحيدة لحل المشكلات ، ولكي يصل البطل الى حبيبته في نهاية القصة يجب أن يكون غنيا (ولو بالحصول على كنز !!!)

على أن هذا الخيال اللاواقعي الذي عاشت فيه أحداث الرواية وحل عقدتها ، قد رافقه توفيق الياس قنصل في تصوير البيئة التي جرت أحداث الرواية فيها ، اننا نعيش حقا، وبواقعية ممتازة ، في تلك القرية ، ثم في دمشق ، كما كانتاتعيشان في الربع الاخير من القرن التاسع عشر : واقعية تصور الشخصيات والبيئة والمجتمع وما ينظمه من قوانين وأعراف اجتماعية ، وفق الكاتب في عرضها وفي تصويرها ، عرضا وتصويرا واقعيين ، جعلانا نراها أمامنا واضحة بينة صادقة .

أما اسلوب الرواية ولغتها فقــد ازداد غنائية وشفافية ، عما كان عليه في الرواية السابقة التي نشرها قبل خمسة وثلاثين عاما . كذلك ازدادت تقنية القصة قربا من الفن القصصي ، وان كانت قد بقيت بعيدة عن الكمال ، وعن أن تعد بين الروايات القصصية الممتازة التي تقف الى جانب مثيلاتها التي نشرت بعد الحرب العالمية الاولى في المهجر ، ومنذ ذلك الوقت ، وبعد الحرب العالمية الثانية في الوطن ايضا .

النقد الادبي ، والدراسة الادبية ، نوعان من النثر قدم لنا فيهما الياس قنصل تتاجا تمثل فيما نشره في مجلة (المناهل) ، وفي الصحف والمجلات الاخرى من ابحاث نقدية خاصة ، ودراسات أدبية عامة ، ثم فيما خلفه لنا من كتب : ثلاثة منها مطبوعة هي (أصنام الادب ، وأدب المغتربين ، ومأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية) ، ورابع مخطوط يدرس (تاريخ الادب المهجري) .

وقد بدأ الياس قنصل حياته النقدية مبكرا ، فكان يكتب مقدمات لدواوينه يعرض فيها آراءه في الشعر ، وفي الالتزام الوطني ، كما فعل مثلا في ديوانيه (على مذبح الوطنية ، والسهام) ، كذلك خص شعراء المهجر المتشاعرين بكتاب أصدره عام ١٩٣٩ ، وأسماه (أصنام الادب)، وهو كتاب يقع في ستين صفحة من القطع المتوسط فيه مقدمة بين فيها غرضه من تأليف الكتاب ، انه « يريد تحطيم الاصنام الادبية التي تدعو نفسها (شعراء) [١١٩] » .. سيحطمها معتداً بنفسه ، غير مبال بما سيلقى من جرَّاء هذا العمل .. أما غرضه من تأليف الكتاب فهو ابعاد « الأدعياء ، البعداء عن تفهم الشعر الحقيقي وتذوقه من اغتنام السانحة للظهور ، والاساءة الى الشعر العربي ، المشهور بالروعة ، بفضل المواهب الفنية التي امتاز بها فريق من النازحين الى العالم الجديد [١٢٠] » ، انه يرمي بمعنى آخر : « الى تنقية شيء قليل من الزؤان الذي اندس في الشعر العربي في المهجر [١٢١] . »

ثم خص كلا من (ميشال مغربي ، وتوفيق الشماس ، وسعيد اليازجي ، ويوسف اليازجي ، ويوسف الخوري ، وعفيف الاشقر ،

---

(١١٩) مقدمة اصنام الادب ص ٣ .
(١٢٠) مقدمة اصنام الادب ص ٣ و ٤ .
(١٢٢) مقدمة اصنام الادب ص ٧ .

وشكر الله الجر ، وجميل بطرس حلوه ، وفائـز السمعاني ، وسليم نادر ، وجورج كعدي ، وجورج صوايا ، وجورج مسره ، والشيخ حنا زخريا ،) بمقالة ، وخص (نعمة قازان) بمقالتين . الاسماء هذه من مهاجر البرازيل والارجنتين والولايات المتحدة ، بعضها مشهور كميشال مغربي ، وشكر الله الجر ، وجورج كعدي ، وجورج صوايا ، وبعضها الآخر لا شهرة له في عالم الادب المهجري .

طريقة الناقد تتلخص فيما يلي : مقدمة عامة تتصل بقضية أدبية ، أو مقدمة خاصة بالشاعر الذي ينقد ، ثم الانتقال بعد هذا الى قصيدة له وتحليلها ، وانتقادها ، وبيان ما له عليها من مآخذ . يقول مثلا من مقالته في ميشال مغربي : « يسيء الكثيرون من الشعراء فهم الخيال ، اذ يحسبونه مبالغـة لايقرها المنطق القديم ، ومغالاة لا يقبل بها العقل الصحيح ، ومتى أراد أحدهم أن يكون بعيد الخيال ، جلد قريحته لتقدم له صورا ، متدثرة بثياب غريبة من الغرابة ، فاذا حبيبته قد خلقها اله غير الاله الذي أعرفه وتعرفه ، واذا دموعه تجري كالأنهار [١٢١] ... » ثم يمضي بعدها الى تطبيق ذلك على قصيدة لهذا الشاعر .

وقد تكون المقدمة خاصة بالشاعر موضوع المقالة كقوله في احداها : « مصيبتنا مع صاحب (المتمردات) كبيرة ، فهو يعتبر أن كلمة النقد ، مهما كانت طفيفة ، الموجهة الى شعره ، لا بد أن تكون منطوية على العداوة ، وعلى الحسد وعلى الحقد ، وعلى كثير من أمثال هـذه الاشياء التي يجيد حضرته سكبها متلاحقة [١٢٣] . »

خيال (ميشال المغربي) مريض ، في أبيات ثلاثة من قصيدة له [١٢٢] ، وشعر (توفيق الشماس) صورة باهتة متقطعة ، وفكر غير ناضجة واسلوب عقيم ، وشعر غير موزون [١٢٤] ، وقصائد الشيخ (سعيد

---

(١٢٣) مقدمة اصنام الادب ص ١٠ .

(١٢٤) مقدمة اصنام الادب ص ١١ .

اليازجي) دمى عليها شيء كثير من الاثواب الحريرية ، ولكنها لا تتحرك أقل حركة ، ولا يموج في نظراتها أدنى شعاع [١٢٥] ، أما شعر (يوسف الخوري) فتجاري لأن صاحبه « حرمته الطبيعة رقة الاحساس، ونضوج الفكر ، وصدق الخيـال [١٢٦] » في حين أن قصائد (عفيف الاشقر) تستحق الجوائز الاولى في السخافة [١٢٧] ، وشكر الله الجر انسان يخطىء ويصيب ، ويسمو بشعره ويكبو [١٢٨] ، والدليل علـى ذلـك قصيدته في شلال تيجوكا . بينما يوزع (جميل بطرس حلوة) حبه على مجالات الطبيعة لتبلغه الحبيبة[١٢٩] ، ولا يُعنى (نعمة قازان) بوحدة الفكرة ، بل يقدم لك منتوجات تنقيباته دون أن يطبعها بطابع مخصوص، لعدم نضوج شاعريته [١٣٠] .

انه في الواقع نقد تأثري ، قاسٍ « يقرع الياس قنصل فيه خصومه بالسوط بدلا من أن يقرعهم بالحجة [١٣١] . » ان ذلك عيب في نقده لا يقره عليه جورج صيدح ، وان كان يرى أن له عند القراء شفيعين هما ذوق دقيق وفن عريق [١٣١] . وهو نقـد جزئي بُني اعتمادا على قصيدة واحدة ، واستعان فيه بالسخرية اللاذعة « فأضحك القراء ، وساير بذلك غريزة الشرقي المولع بثل العروش وتحطيم التيجان [١٣٢] ».

ان (لاصنام الادب) ، على الرغم من ذلك قيمتها التي تتجلى في

---

(١٢٥) مقدمة اصنام الادب ص ١٣ .

(١٢٦) مقدمة اصنام الادب ص ١٧ .

(١٢٧) مقدمة أصنام الادب ص ٢١ .

(١٢٨) مقدمة اصنام الادب ص ٢٤ .

(١٢٩) مقدمة اصنام الادب ص ٢٨ .

(١٣٠) اصنام الادب ص ٣٣ .

(١٣١) جورج صيدح ، أدبنا وادباؤنا ص ٦٢٧ .

(١٣٢) جورج صيدح ، أدبنا وادباؤنا ص ٦٢٨ .

أمرين : أولهما الدفاع عن الادب المهجري، بمهاجمة الادعياء المتشاعرين . وثانيهما : الاسلوب الحي الساخر العاطفي الذي كتبت به هذه الأبحاث .

أما كتاب (أدب المغتربين) [١٣٣] فمجموعة أبحاث تقع في مائة صفحة من القطع الصغير ، تحدث فيها الياس قنصل عن : المغتربين الاوائل، وعن الصحافة المهجرية ، وعن الجمعيات الادبية الثلاث ، الرابطة القلمية والعصبة الاندلسية ، والرابطة الادبية ، ثم قارن في بحثين متلاحقين بين أدب الشمال وأدب الجنوب ، وعرض لنا جهاد أدباء المهجر (في سبيل العيش) وما لقوا جزاء لأدبهم، وأجاب في الصفحات العشر الاخيرة من الكتاب عن سؤال طرحه في آخر أبحاثه وهو (ما مصير الادب العربي في المهاجر الاميركية ؟)

ليس (أدب المغتربين) دراسة لأدب المهجر ، بل هو خواطر وأفكار حول هذه الموضوعات التي عرضناها ، والتي نجدها في كتب كثيرة عالجت أدب المهجر بعمق وروية وأكاديمية في السنوات العشرين الاخيرة . ومع ذلك ، فللكتاب أهميته بين آثار الياس قنصل بصورة خاصة ، وبين الكتب التي تشاركه معالجة موضوعه بصورة عامة .

للكتاب أهميته بين آثار الاديب موضوع الدراسة في بحثنا هذا ، ذلك أنه الكتاب الاول بين كتبه الذي يعالج موضوعه بتؤدة ودقة وأسلوب علمي هادئ رصين .. انه من هذه الناحية بعيد" جدا عن كتاب (أصنام الادب) الذي عرفنا به منذ قليل ، والذي نقرأ فيه لالياس قنصل نقدا حادا يتقد كالنار ، حرارة عاطفة ، وتموج اسلوب . أما في (أدب المغتربين) فالجملة غدت طويلة ، والفكرة تعرض بهدوء ، وكل ما يقدم عرضة للمناقشة . كقوله مثلا من بحث (أدب الشمال [١٣٤]) :

---

(١٣٣) نشرته وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ص ١٩٦٣ .

(١٣٤) ادب المغتربين ص ٨ .

« نستطيع أن نقسم الشعرالعربي في المهاجر الاميركية الى قسمين : الشمالي والجنوبي ، وهما يختلفان في الاتجاه ، ويشتركان في الهدف . يتباينان في المظهر ، ويتفقان في الجوهر .

كلاهما ساهم في اذكاء نار اليقظة الادبية ، وبث في الفكر العربي هذه الروح الجديدة التي نقلته من وهدة الجمود الى قمة الحياة . »

أما أهمية الكتاب من حيث موقعـه بين الكتب التي درست ادب المهجر فتكمن في مقارنة موفقة طريفة بين أدب الشمال وأدب الجنوب ، وفي كونه قـد ضم أوفى تعريف (بالرابطة الادبية) التـي تشكلت في بوينس آيرس بالارجنتين ، والتي رافق هو وأخوه زكي مولدها في عام ١٩٤٩ ، وحياتها ، وأبحاثها ، وشهد كذلك انفضاضها بعد سنتين.. ولعل خير ما في الصفحات التسع التي خصص للحديث عن (الرابطة الادبية) تلك التعريفات المختصرة والجيدة بالادباء الذين ضمتهم بين أعضائهـا .

وتأتي أهمية كتاب (أدب المغتربين) أيضا من هذا الفصل الاخير الذي تحدث فيه المؤلف عن مصير هذا الادب .. انه يتحدث ، على الرغم من تفاؤله ، عن نهاية حتمية له ، « يتلاشى فيها شيئا فشيئا ، ويخفت صوته رويداً رويدا ،ولن يمر وقت طويـل عليه حتى يصبح أثرا بعد عين ، يذكره الباحثون والمؤرخون حين يريدون أن يدرسوا مراحل الادب في ميدان النهضة الفكرية الاخيرة (١٣٥) . » فالعوامل المختلفة تتضافر في المهاجر الاميركية لتقضي عليه ولتجعله « أدبا يحتضر، بعد أن تساقطت كواكبه ، وآذنت شمسه بالمغيب (١٣٦) . »

---

(١٣٥) ادب المغتربين ص ٩٢ .

(١٣٦) مقدمة جورج صيدح لكتابنا (الحنين واللقاء في شعر المهجر) ص٤ .

وهاهي ذي الايام تؤكد ما جاء في ذلك الفصل ، فالشعراء والادباء المهجريون يمضون الى رحـاب الخلد ، ولا يخلفهم أحد ، والصحف المهجرية أصبحت نعد على الاصابع ، والذين يفهمون اللغة العربية من الجيل القديم يقل عددهم سنة بعد سنة .. أما الاجيال الجديدة التي تنحدر من أصل عربي ، فقد غلبها المحيط الاميركي على أمرها ، وهي لا تفهم من اللغة العربية الا القليـل من العامية .

كرر الياس قنصل هذه الافكار في حديث له مع مجلة (الفـداء) الفنزويلية في كانون الاول من عام ١٩٨٠ ، فأعلن أنه لاتوجـد حلول للمحافظة على الادب العربي في المهجر وان كل ما يمكن عمله هو السعي لتمديد أجله فقط ... وذلك بفتح مدارس لتعليم العربية ، وبالاكثار من المراكز الثقافية في المدن التي تكثر فيها الجوالي العربية .

وأعاد ماسبق أن طالب به المسؤولين في سوريا ولبنان بأن يعملوا على انشاءمتحف للأدب العربي المغترب ، فهو ثروة لايصح أن تضيع.. « فلو أمكننا أن نجمع الدواوين التي طبعت في المهاجر الاميركية ، وان نجمع بعض اعداد من الصحف التي صدرت ، لكان لنا من كـل ذلك مجموعة تبرهن على أن الأدب العربي في المهاجر ظاهرة فريدة في التاريخ لم يسبق لها مثيل (١٣٧) . »

---

(١٣٧) مجلة الفـداء التي تصدر بكراكاس عاصمة فنزويلا ، العـددان ٢٦ و ٢٧ ، آب ـ ك١ ١٩٨٠ ، ص ٨٨ و ٨٩ .

هذه الآراء الأخيرة التي أوجزها في (أدب المغتربين) حول مصير أدب المهجر عاد فعرضها باسهاب وتوسع في آخر كتبه (مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية) [١٣٨] ، الذي نشر بدمشق قبيل وفاته بخمسة أشهر والذي يقع في خمس وتسعين صفحة من القطع المتوسط . بدأ الياس قنصل كتابه هذا بمراجعة ماضيه الادبي محاولا فيه أن ينصف الآخرين ، حين ينصف ذاته ، « فأفضل المحسنين من افتتح احسانه بأهله [١٣٩] » ، فحدثنا عن نضاله ضد المستعمر في سورية في العشرينات والثلاثينات ، وعما لقي ، ولقيت كتبه ، ولقي أهلوه من اضطهاد المستعمر.

ثم روى لنا ماكان للشعر عامة ، والقومي منه خاصة ، من منزلة جليلة منذ ثلاثين سنة أو أربعين ، وعما أخذ يلقى من فتور واهمال عدد أسبابهما ، وأهمها مادية طاغية عمت العالم ، واحتجاب الصحف العربية في المهاجر . على ان النفس العربي في المهاجر ظل حياً ، حتى بين الجيل العربي الجديد ، الذي تعلق بوطنه ، وبقضية فلسطين ، ومضى يناضل من أجلها ... على أن مكانة اللغة العربية قد أخذت تنحدر ، والمتكلمين بها يقلون ، ومرد ذلك الى أسباب كثيرة ، لعل أهمها غياب الصحيفة التي كانت تصل المغترب بوطنه ، وقضايا أمته ، والتي كانت لها مكانة هامة .

ومضى ، بعد هذا ، يحدثنا عن أنواع الصحف التي صدرت في الأرجنتين وعن قيمتها الأدبية وعن حسناتها ، وعن الدور الذي قامت به حين « وثقت الصلات بين شطري الامة : المغترب والمقيم ، والتي لقي فيها الشعراء الذين استوطنوا العالم الجديد تشجيعاً على المضي في ارتشاف كؤوس الحرمان التي ارتشفوها راضين لا يتذمرون [١٤٠] . »

---

(١٣٨) نشر اتحاد الكتاب العرب ، دمشق تشرين الاول ١٩٨٠ .
(١٣٩) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية ص ٧ .
(١٤٠) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية ص ٢٦ .

وازدهرت الصحافة في أغلب الاقطار التي كان فيها للعرب جالية ، ففي عام ما كان في الأرجنتين ثلاث جرائد يومية ، وعشر مجلات اسبوعية وشهرية ، وسبع نشرات دورية ... ولم يبق منها في آخر المطاف الا جريدة يومية واحدة ، ومجلة شهرية (١٤١) .

ثم عدد لنا المسؤولين عن ذلك : أصحاب الصحف ، والأدباء . والبعثات الدبلوماسية ، والاغنياء (١٤٢) ، ونقل لنا نداء كان قد بعث به منذ مدة بعيدة الى رؤساء الحكومات ، والى وزراء الثقافة والارشاد والاعلام ، والى الجامعة العربية ، والى المجامع اللغوية ، والى أندية الادب بعنوان (الادب العربي في المغترب في حالة احتضار) بيّن لهم فيه الواقع المؤلم الذي وصل اليه أدب المهجر ، ودعا الى تكريم أدباء المهجر الباقين على قيد الحياة ، لتجديد نشاطهم ، ومحو ما اعتوراذهانهم من جمود أشبه ما يكون بالقنوط . وهو النداء الذي استلم أجوبةعنه، رسائل عديدة حافلة بالاطراء ، مليئة بالشكران .. ثم لا شيء ..

ثم حدثنا عن مؤتمر المغتربين الذي انعقد في بوينس آيرس في عام ١٩٧٣ ، وسجل لنا الخطاب الذي ألقاه فيه بعنوان (مصيرالجالية(١٤٣)) التي وهنت أسباب صلاتها بوطنها وبعروبتها ، ودعا الى الابقاء على تلك الصلات .. وذكر أن الجالية العربية في المهجر ليست كغيرها ، ان لها أعداء من الصهاينة في كل مكان من الارض ، والواجب القومي العربي يقضي بمقارعة الصهيونية ، واعلان الحرب عليها ، وعلى مؤيديها في كل مكان ، لانها تهدد الوجود العربي ، وتحوك المؤامرات على ماهو جميل

---

(١٤١) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية ص ٣٠ و ٣١ .

(١٤٢) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية ص ٣٢ و ٣٣ .

(١٤٣) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية من ص ٤٧ الى ص ٥٢ .

وقيم ، ومما له صلة بالعرب : بتاريخهم ، وبحضارتهم ، بماضيهم وحاضرهم . وانما يكون ذلك بكسب الرأي العام في أميركا الجنوبية ، وأسرع الوسائل لهذا الكسب « انشاء جريدة عربية تصدر بانتظام ، وتحمل في عدة صفحات منها حقيقتنا ، بلغة البلاد التي تظللنا سماؤها (١٤٤) » .

واذا كانت العربية ، أم اللغات ، قد شرعت تغيب عن تلك البلاد ، فان الياس قنصل قد وجد ما يعوضه عنها ، في هذه المحاضرات التي أخذ يلقيها باللغة الاسبانية ، عن الحضارة العربية ، تلك المحاضرات التي أبدى من استمعوا اليها اهتماما فائقا بها وطلبوا المزيد (١٤٥) . وهكذا بدأت مرحلة جديدة في حياة قنصل العلمية ، مرحلة التحدث والكتابة بالاسبانية ، وبصورة موضوعية ، عن مآثر العرب في العصور الوسطى ، تلك الاحاديث التي نجد صداها في عدة صفحات من كتابة (مأساة الحرف العربي) ، ثم في مؤلفاته الاربعة التي كتبها بالاسبانية ، وتناول فيها انبعاث القومية العربية ، وشخصيات تاريخية عربية ، وموجز التاريخ العربي ، وجبران خليل جبران .

ومضى المؤلف بعد هذا ، فحدثنا عن المدرسة التي أقامتها الجالية لتعليم اللغة العربية (١٤٦) ، وعن (ندوة الادب العربي) التي أنشئت للحفاظ على لغة الضاد (١٤٧) ، ثم كرر دعوته لاصدار الجريدة التي

---

(١٤٤) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية ص ٦١ .

(١٤٥) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية ص ٦٢ .

(١٤٦) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية ص ٦٥ .

(١٤٧) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية ص ٦٧ .

تحدث عنها فيما سبق ، والتي لا يمكن أن يقوم بعبئها سوى احدى الحكومات العربية [148] .

وخص البترول ، ودوره في المعركة ، بمقال نقل فيه ما كان قد نشره في عام ١٩٥٧ في مجلة (الجندي) الدمشقية بعنوان (نحن نملك القوة التي تستطيع أن ترد الاستعمار خاسرا مدحورا [149] .)

ثم قارن بين الأدبين المهجري والاندلسي [150] ، مظهرا ما بينهما من فروق ، ومبيناً عقم مثل هذه المقارنة ، وانتقل بعد هذا فأكد على وجوب ايجاد (متحف المغتربين) [151] في احدى العواصم العربية ، متحف تجمع فيه آثار المهجريين وصحفهم ، وطالب بالاسراع في ذلك لأن كل يوم يمر في التردد ، فرصة تدبر الى غير معاد [152] .

وكان آخر موضوعات الكتاب صفحة بعنوان (النزع الاخير) ، بيّن فيها أهمية الادب المهجري ، وضرورة انعاشه لتمتد حياته قليلا ، ان لم يكن في وسعنا الابقاء عليه .. فهذا الادب في النزع الاخير ، وربما كانت هذه الصفحات غرغرة الختام لأدب « لحظت العروبة من حاضره ما يحتمل من لوعة ، بعد أن برقت له بوارق من شهرة ، يهمه أن يتوارى وهو منتصب كالدوحة العظيمة : تبسط فيئها على المتعبين ، وتضرب الأنسام من أوراقها وسوسة هي عبارات لوم وعتاب ــ وان

---

(١٤٨) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية ص ٧٠ وما بعد .
(١٤٩) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية ص ٧٣ وما بعد .
(١٥٠) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية ص ٨٤ وما بعد .
(١٥١) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية ص ٩١ .
(١٥٢) مأساة الحرف العربي في المهاجر الاميركية ص ٩٢ .

كان الياس قد دب في جذورها ــ اذ بذلك يتكامل قسطها من راحة الضمير واطمئنان النفس(١٥٣) •• »

أجل كانت هــذه الصفحة غرغرة الختــام في أدب الياس قنصل وكتبه ، لأنه سيتوفى بعد الانتهاء من طباعتها في أقل من ستة أشهر •

اننا ندعو مع المرحوم ، طيب الله ثراه ، الى اهتمام واع مسؤول ، بما تبقى من نفس عربي في المهاجر ، وبروح للعروبة لا تزال موجودة في نفوس المتحدرين من أصل عربي •• بذلك نبقى على صلة لنــا باخوة لا يزالون يعتزون بتلك الصلة ، ويعملون على الابقاء عليها من جهة ، وعلى الاشــادة بتاريخنا وأمجادنا ، والعمــل من أجل قضايانا ، من جهــة أخــرى •

---

(١٥٣) مأساة الحرف العربي في المهاجر الامريكية ص ٩٥ .

القسم الرابع

الياس قنصل الانسان العربي

الياس قنصل الانسان العربي

- ١ -

اذا تأملت الياس قنصل في سنوات عمره الاخيرة لاحت لعينيك بسرعة صورة متميزة [١] : ، قامة نحيفة قريبة من الاعتدال ، يعلوها رأس متوسط الحجم أهم ما فيه عينان كبيرتان سريعتا الحركة تشعان نورا وذكاء ، وتنظران الى البعيد بقوة ، كأنما هما عينا صقر ينقض من السماء . لذلك كان أخوه زكي على حق ، حين أطلق عليه لقب (النسر) في قصيدته التي رثاه بها ، وأرسلها الى اتحاد الكتاب العرب بدمشق لتقرأ ، نيابة عنه ، في حفلة تأبينه [٢] .

فاذا ما تكلم كان عذب الكلام ، تشترك يداه مع لسانه في التعبير عن أفكاره . أما حين يلقي خطبة ، أو ينشد قصيدة ، فانه يعطي ذلك من روحه وقلبه ، فيؤدي هذه القصيدة أو تلكُمُ الخُطبة أداة جيدا معبرا ، يجعله سيد المنبر الذي يعلوه ، فيكون الخطيب المصقع المؤثر في سامعيه :

---

(١) خرجنا بهذه الصورة من لقائنا له في آب من عام ١٩٧٩ .

(٢) نشرت صحيفة الثورة الدمشقية القصيدة في احد اعدادها من شهر مايس١٩٨١ ونشرتها مجلة الضاد في عدد مايس١٩٨١ ص ٥و٦و٧ . وقد اقام اتحاد الكتاب حفلاً تأبينياً ضخماً له في المركز الثقافي العربي بدمشق مساء الاحد ١٩٨١/٦/٧ .

يعتلي منبر الكلام فتسري كهرباء الحماس في الأبدان
نبرات كأنهن هدير الارعـ ـد يأتي بالعارض الهتاز
من عظات الانجيل فيها سمات وسمات من دعوة القرآن(*)

- ٢ -

غادر الياس قنصل الوطن الى مهجره ، وعمره احدى عشرة سنة ، وثقافته لم تتعد التعليم الابتدائي ، لقد ثقف نفسه بنفسه ، وتعلم في المهجر من الكتب العربية التي كان ينفق معظم دخله الزهيد على شرائها[٣]، لكنه كان يملك موهبة الفنان الاديب الشاعر ، لذلك استقام له الشعر بسرعة وانطلق منذ بلغ السابعة عشرة ينظم ، ويكتب في الصحف ، ويرئس تحرير احداها ، ويصدر بنفسه أخرى ، يفعل ذلك كله وعمره لم يتعد الثالثة والعشرين .. لقد علمته الحياة ، وعلمته الكتب ، وكانت ثقافته الشخصية وتجاربه الكثيرة الخاصة عوناً لموهبته في ايصاله الى المكانة التي بلغها في عالم الادب .

- ٣ -

على أن الموهبة والثقافة ــ مع أهميتهما ــ غير كافيتين لاحلاله المكانة التي احتلها ، شاعرا وأديبا وصحفيا ، اذا لم يرفد ذلك كله بالنشاط الكبير الذي عرف عنه ، فلقد كان « حركة دائبة في قلب الاوساط الادبية : يخطب في النادي ، ويتكلم في الاذاعة ، ويواصل الصحف بخواطره السياسية والاجتماعية ، ويطبع مؤلفاته كتباً صغيرة[٤] . »

(*) الابيات من قصيدة أخيه زكي في رثائه

(٣) من رسالة اخيه كرم الى الاستاذ عبد الله يوركي حلاق المرسلة في الشهر الخامس من عام ١٩٨١ .

(٤) جورج صيدح ، ادبنا وادباؤنا ص ٦٣١ .

واذا كان ذلكم النشاط قد امتاز في شبابه بنــوع من الاعتداد بالنفس بلغ حد التحدي والغرور ، ودفعه مثلا الى تحطيم (الاصنام) في الادب المهجري ، في ثقة بالنفس تدعوه الى القول انه لا يفعل ذلك حسدا ، « فعلى ماذا يحسد هؤلاء المشوهين صفحة الادب ، الواقفين حجر عثرة في سبيل التقدم ؟ وهو الذي لو ترك قلمه وحده على أحد الطروس ، وغاب ساعة ، ثم رجع اليه ، لوجده قد نظم ما يساوي جميع ما كتبه هؤلاء [٥] .. »

واذا كان ذلكم النشاط قد امتاز بالاعتداد بالنفس في شبابه ، فانه قد انقلب في سنــوات نضجه وكهــولته الى الهــدوء والموضــوعية والتواضع .. فهو « لم يقدم للوطن الا الحنين يعتمر قصائد ومقالات قيمتها الوحيدة أنها صادقة الشعور ، وأجرها قيامها بسهمتها في تركيز النفس العربي في العالم الجديد[٦] » . وهو يأبى تمشياً مع الموضوعية ــ أن يقيم شعر أخيه زكي مع الذين قدم تعريفا بأدبهم وشعرهم من أعضاء (الرابطة الادبية) خوفا من أن يندفع مع عاطفة الاخوة .

لذلك لم يكن غريبا أن يكون « الياس قنصل أخصب أديب عربي من أدباء المهجر الجنوبي [٧] » وأن يترك لنا هذا النتاج الغزير الذي تمثل في حوالي خمسين مؤلفاً باللغتين العربية والاسبانية .

---

(٥) مقدمة كتاب (الأصنام) ، ص ٣ .

(٦) من الكلمة التي ألقاها تحية للوطن من اذاعة دمشق عند عودته من المغترب في عام ١٩٥٥ ، وهي منشورة كلها في كتابنا (الحنين واللقاء في شعر المهجر) ص ١٠٠ وما بعــد .

(٧) جورج صيدح ، المصدر السابق ٦٢٦ .

- ٤ -

والياس قنصل انسان بكل معنى الكلمة ، انسان يحب أسرته ، ويحب مدينته الصغيرة ، ووطنه السوري الصغير ، ووطنه العربي الكبير، ويمتد ـ بعدها ـ حبه فيشمل الانسانية في توازن دافع عنه عندما دُعِيَ الى أن يترك القضايا الوطنية الضيقة ، وينتقل الى الحديث عن هموم الانسانية ، وقضايا البشرية الكبرى ، اذ « لا حرية للشعر مع عبودية الوطن ، ومن لم يكن حراً فلن تتفتق نفسه عن شعر حر [٨] » . ومن يهتم بالدنيا قبل اهتمامه بوطنه الصغير يشبه الوالد الذي يترك طفله يعاني من المرض ، ويذهب الى السوق ليبتاع لعبة يهديها الى طفل جاره المعافى السعيد [٩] .

- ٥ -

انه يحب أسرته أولا ، وأمامنا دليل على ذلك ، هذه العاطفة ، الجياشة التي تفيض بها قصيدة أخيه زكي في رثائه : لقد كان رفيق طريقه الصعب ، واقتسم معه فيه حلاوة العيش ومرارة الحرمان ، وقاد خطواته . وحماه بجفنيه ، في زحمة الدهر ، وهو استاذه في كل شيء ، وما شعره الا قبس من بيانه [١٠] :

قد نشأنا معاً رَفِيقَيْ طريق ... وجنينا أزكى وأشهى المجاني
واقتسمنا حلاوة العيش حيناً ... وعرفنا مرارة الحرمان

---

(٨) من تصدير ديوانه (السهام) ص ١٠ .

(٩) كتابه البقايا ص ٢٦ .

(١٠) من قصيدة زكي قنصل في رثاء أخيه ، المشار اليها في الحاشية رقم /٢/ .

قاد في زحمة الحوادث خطوي	وبجفنيـه في الخطوب حمـاني
ان يطب للنفس شـدوي فمنـه	هـذه الطيبـات مـن ألحاني
واذا استعذب الندامى شـرابي	فـلأني أصبُّ ممـا سقـاني
واذا صفقـت لشعري قلـوب	فلأني اقتبسـت منـه بيـاني
بتعـاليمه اهتـديت ومـاجت	مـن معـانيه في قريضي معـان

- ٦ -

وهو محب لأصدقائه ، وفيّ لهم ، يضع في خدمتهم كل ما يستطيع وما يملك ، وخاصة اذا كان الأمر يتعلق بقضية من قضايا الأدب . وان أنس لا أنس اسـراعه في الاجابة على رسـالتي حين كتبت اليه طالباً ما لديه من شعر الحنين واللقاء عندما كنت أنوي تأليف كتابي في هذين الموضوعين ، فلقد أرسل ما لديه من ذلك الشعر وذلك النثر مطبوعاً على الآلـة الكاتبة ، ومعززاً ذلك بمـا يملك من كتبه المطبوعة التي أرسلها رزمة تضم سبعة مؤلفات شعرية ونثرية ، ومضيفاً اليهـا ، من بعدُ ، ديوانه الأخير (ألحان الغروب) ، وعلى كل منها كلمات اهداء لا أبر منها ولا أحلى .

- ٧ -

وحدث ما شئت عن حبه بلدته الصغيرة تلك ، وعن حنينه لمـا يحيط بهـا من ريف جميل ... بلدته (يبرود) الصغيرة الحلوة التي ولد فيها ، نجدها في كثير من نتاجه الشعري والنثري : انها مثلاً المكان الذي جرت فيه معظم أحداث روايته (في مهب الريح) المطبوعة بعـد

أن قارب عمره الستين ، والحنين اليها لم يفارقه طوال حياته ، فالشوق للعودة اليها يزداد يوماً بعد يوم [11] :

أحن الى الحقل الذي كان ملعبي ... وأشتاق عهداً كان للطهر موسما
صبيّاً يعد الزهر زينة لهوه ... ويعتبر الأدواح نوعاً من الدمى
ويدرك من شدو الطيور مرامها ... وتدرك منه ما ابتغى ان تكلما
يجوب كما يهوى معالم قرية ... عليها سلامُ القلب والعقل قيما
متى ينتهي أسري وتنفك شدتي ... وأترك جواً بالمشقات مفعما
فأصرف في الحقل الذي كان ملعبي ... بقية عمرٍ بالعراك تصرما

- ٨ -

أما سورية وطنه الصغير فكان حبه لها مبرحا ، واعتزازه بنضالها يشغل سنوات شبابه ، ويملأ دواوين شعره الأول ، ألم يخص ثوراتها ونضالها ضد المستعمر بديوانيه (على مذبح الوطنية ، والسهام) ؟ ألم تملأ أخبار بطولات أبنائها صفحات مجلته (المناهل) ؟ ألم يفرح فرحاً لا حد له بلقائها في عام ١٩٥٥ ؟ معبراً عن فرحته بالبكاء ؟

هـذا غريبك يا بلادي عـاد من ... أرض الدراهم عـودة استسلام
قضـى لياليه وبين ضلوعـه ... نـار تعـج بشـوقه النمـام
لولا الرجاء بأن يعود اليك مـا ... حمـل الذي عـانى من الأيـام
ان التجلـد في اللقـاء محـرم ... أمـا البكـا فيه فغير حـرام

---

(١١) ديوان الحان الغروب ص ١٨و١٩ .

ألم يعلن عن « عجز اللغة برمتها عن وصف ما يعتلج في فؤاد العائد الى وطنه من عواطف تملأ هنيهة لا تدخل في حساب الزمن لأ نها أعظم منـه [١٢] » .

ألم يؤلف في نضالها الثوري عام ١٩٣٦ رواية (على ضفاف بردى) التي كانت تسجيلاً أمينا وواقعيـاً وصادقاً لما تم في دمشق في تلكم الأيام الخالدة من ذلك العام ؟ ذلك النضال الذي توج باذعان المستعمر أمام رغبة الوطن ، واعترافه باستقلال القطر العربي السوري ؟ ..

ألم يؤلف ذلك كله أسباباً كافية لمنع ديوانه (السهام) من دخول البلاد المشمولة بالانتدابين الفرنسي والبريطاني [١٣] ، والى مضايقة أسرته في الوطن ، ثم الى محاكمته غيابياً ، والحكم عليه بالاعدام [١٤] ؟

- ٩ -

ولم يقصر حبه هذا على سورية فقط ، بل وسّع من آفاقه ليشمل الوطن العربي الكبير كله : فهو يخص كلاً من مصر وليبيا بقصيدة في ديوانه (السهام) ، ويرى في أولاهما ــ وهي بعنوان (تحية مصر) ــ أن الشام ومصر لؤلؤتان في عقد العروبة [١٥] :

قطران في عقـد العروبـة بـرمزا   أرض الشـآم وموطن الأهـرامِ

---

(١٢) من كلمة (ما اكرمك ايها الوطن) المنشورة في كتابنا الحنين واللقـاء ص ١٠٠ .

(١٣) كتاب البقايا ص ٢٢ .

(١٤) كتاب (مأساة الحرف العربي في المهاجر الامريكية) ص ١٠ .

(١٥) ديوان السهام ص ٤٧ .

كـانت حيـاتك كل ثانية لهـا تاريـخ مجـد طـائل نـوراني
هذا كتـابك يملأ الدنيـا وقـد صـلحت شـرائعه لكل زمـان
الضـاد مـن نغمـاته في جنـة محروســة بالحب والرضـوان

- ١٣ -

أجل كان الياس قنصل انساناً ، ولكنه ، انسان فذ ، هاجر من بلدته صغيراً ، فعلّم نفسه ، وناضل مجـاهداً في مسارين : اولهما : مسار العروبة يحياها مع قضايا الأمة العربية في سائر ديارهم ، وثانيهما : مسار تركيز النفس العربي والابقاء عليه حياً أطول مدة ممكنة •

ولم يفعل ذلك فحسب ، بل كان باراً بأهله ، وبالحقل الذي درج خطواته الأولى فيه ، بمدينته الصغيرة ، بسورية الحبيبة الى قلبه ، ثم بهذا الوطن العربي الكبير الذي تغنى بأمجاده ، وبتراثه ، وبهذه الأمة العربية التي رآها عظيمة في ما ضيها وفي حاضرها ، والتي كان يعتقد بأن مستقبلها سيكون كذلك زاهراً بساما •

القسم الخامس

الخاتمـــة

رسالة المشتاق

قسم اللغات

خاتمـة

وهكذا وصلنا الى نهاية هذا البحث الذي قدمنا فيه ولأول مرة دراسة موسعة عن الياس قنصل شاعراً وكاتباً وانساناً عربياً • فعلنا ذلك تحية لروحه وتتاجه وللصداقة التي جمعت بيننا طوال عشرين عاما ، لذلك كان في بحثنا بعض الأمور الذاتية ، والذكريات الشخصية ، التي نعتقد انها منحت الكتاب حياة وامتاعا •

على اننا في دراستنا قد التزمنا ، ما أمكننا ذلك ، جانب الدراسة الموضوعية ، فقلنا مالأدبه من مزايا ، وما عليه من ملاحظات • فاذا كان جانب النظم المتسرع يكثر في شعره ، وكانت الفنون الأدبية الحديثة التي لجأ اليها تبتعد قليلا أو كثيرا عن أصولها الفنية المعتمدة ، فـان الذي يشفع له ، ويبقيه في حرم الأدب أمور كثيرة أهمها : غزارة نتاجه وتنوع عواطفه الجياشة فيها ، ثم هذه الروح العربية التي بلغت حد التصوّف محبة للعرب ، واشادة بأمجادهم ، وتغنيا بحضارتهم العظيمة ، وايمانـا بمستقبل زاهر لهم ، لائق بذلك الماضي ••

بقى ان نرجو ان يتاح لنتاج الياس قنصل من يعنى به ، فيعاد طبع مانفـذ من آثاره القديمـة ، ونشر ماترك مخطوطا وهو كثير ••• ثم أن يتـاح لنا ان نشهد ذات يوم ذلك المتحف المهجري الذي دعـا الى ايجاده ، ليضم نتاج الأدب المهجري ، احدى معجزات العرب في العصر الحديث في كميته ، وتنوعه ، وقيمته ، ومزاياه ، وهو جدير بالتكريم

والجمع ، ليقف شاهداً على أنَّ هذا الأدب العربي العظيم « يشبه نسر لقمان في تجديد شبابه ، كلما أشرف على الهرم بسط جناحيه على جهات الكون وراء القمم . وقد جال جولته الأخيرة في العالم الجديد ، ونشر ، على شماله وجنوبه رياشاً تداعت من قوادمه وخوافيه : حتى أصبحت جناحا كاملاً (★) » .

حلب في السابع من رجب عام ١٤٠١ هـ

والعاشر من حزيران عام ١٩٨١ م

(★) الكلمة لجورج صيدح

القسم السادس

مختارات

من شعر الياس قنصل ونثره

القسم السادس

[illegible]

[illegible]

من قصيـدة بعنوان

صيحـة ألم (*)

أبعد ربوع رصع المجد أرضهـا ترى لـذة للعيش في موطن ثان
وهل بعد سوريـا تروق لشاعر بلاد .. وان كانت كجنة رضوان؟
بلاد حباهـا الله لطفـا ورونقا فجرت ذيول انفجر في كل ميدان
سل الدهر عنها فهو ينبيك أنها سمت بمعاليها الى متن كيـوان
فما طأطأت للفـاتحين جبينهـا ولا خفضت هام الخنوع لانسان
ولا عرفـت غير الاباء سجيـة ولا سكنت يـوماً لظلم وعدوان
فوارسهـا مشهـورة بثباتهـا متى كل من طعن القناكل مطعان
أسود لدى الهيجاء يرهب بأسها تذب بسيف عن حماها ومـران
وتهدم آمـال العـدو بعزمهـا وتلقى المنايـا بابتسامـة فرحان
كما فعلت في (ميسلون) أماجد أعادت مواضيها مواضى(عدنان)

(*) ص ١٥ من ديوان (على مذبح الوطنية) المطبوع ببوينس آيرس سنة ١٩٣١

دفاع عن الشعر القومي (★)

قد تكون مدافع المستعمر ثقيلة ، وقذائف طياراته وبيلة ، ومعامل ذخائره الجهنمية كثيرة الانتاج ، ولكنه على الرغم من ذلك ضعيف ، ضعيف جدا ، ازاء الشعب اذا توحدت منازعه ، وتراصت قواه ، واعتمد على حقه ..

ولقد رددوا « ان أفضل شعر الشاعر ما كان معبرا عن صادق شعوره ، وخير الشعراء من حل عن مخيلته عقدة العبودية فكان حرا فطريا في تفكيره . »

وعليه فان من تقيدت بلاده بالسلسلة والغل ، ليس حرا ، وهو بعض منها . ومن لم يكن حرا ، فلن تتفتق نفسه عن شعر حر ، فسعينا لاستقلال بلادنا ، سعي لحرية شعرنا أيضا ، هذه الحرية التي تخفق في فضاء ملكوتي من العظمة ، تسبح فيه الأنفس بلذة روحية قليلة النظير .

قد يوسوس الكثيرون حول هذا الديوان بما يعني ان القصائد المنبثة فيه ، لبست من الشعر الذي يطل الخلود من قوافيه . وما هي الا بنات ظروف ومناسبات لا يلبث أن يعفي عليها الزمان ، ويطرحها في زوايا النسيـــان .

وأنا أقول ان نيل الخلود لم يكن غايتي من اطلاق هذه (السهام)، بل غايتي وضع آجر فذ في أساس القومية ، وسواء لدي أعرف الناس اسمي أم جهلوه ما دمت أقوم بما أشعر أنه واجب علي .

(★) من مقدمة ديوان (السهـــام) المطبوع عـــام ١٩٣٥ في بوينس آيرس عاصمة الارجنتين من ص ٧ الى ص ١٢

دعـوة بـلادي (★)

ثائر دمشقي يودع عروسه لدن شبـوب نيران الثورة السورية عام ١٩٢٥

بلادي تدعوني الى حومة الوغى ودعوتهـا الغـراء أمر مقـدس
تبسم فيهـا المستبيح ضـلالة فهبت تريه كيف تقسو وتعبس
فان لم أكن في مطلع الجيش هاجماً تمور لصيحاتي الأعاذي وتوجس
وان لم أسجل في المواقع صفحة يخط بها الاقدام ما ليس يدرس
فلا أبهجت قلبي نسيمات (دمر) ولا ضمني في (شامة) الارض مجلس

• • • •

فان عدت عشنا هانئين بموطن كرامة أهليـه نصـان وتحرس
والا ، فلا تبكـي علـي فانني أموت قرير العين بالعز أهجس

(★) من ديوان (السـهام) ص ٢٣ و ٢٤

من قصيدة بعنوان (معاذ الله) (★)

أنرضى بالهـوان ونحن قـوم ... ملأنا صفحـة التـاريخ فخـرا
وأوجدنا مـن العمـران دنيـا ... وأحرزنـا علـى الايـام نصرا
أيرهبنـا الحديـد وقد بنينـا ... بحـد السيف مجـدا مشمخرا
تحـاول أن تطـاولـه الثـريا ... فيعجزها فترجـع وهي حسرى
أيرهقنـا الغريـب ويزدرينــا ... ويجعـل سهلنـا بالخسف وعرا
ونحن من الألى قادوا البرايـا ... وضـاع نداهـم بـرا وبحرا

. . . .

دمشق ، وما دمشق سوى نعيم ... تزيد جمالهـا الأيـام سـحرا
وما بردى سـوى نغم بديـع ... يـوقعـه جـلال الله شـعـرا
يحل بهـا الربيـع حلول ضيف ... فيكسب من فتون الحسن بشرا
كـأن الله رام الخلـد عرسـا ... فقـدم بهجـة الفيحـاء مهـرا

. . . .

دمشـق متى أعود اليك ؟ اني ... جرعت من النوى خلاً وصبرا
وألثم فيك مـن شوقي ترابـاً ... يكاد يفوح مثـل الزهر عطـرا

(★) ديوان (السهام) ص ٤١ و ٤٥

شهيد ميسلون (★)

رأى الغدر يحدوها دياً حملة العدى	وأدرك نيات العلوج الغواشم
فنادى ، فلباه رجال أشاوس ،	يكرون في الهيجاء كرّ الضراغم
فخطّ يراع المجد للشام صفحة	تضم الى أمجادها والعظائم
هوى ، انما في ساحة العز والعلا	وتحت قتام بالقذائف عائم
هوى ، انما دفعاً عن الوطن الذي	أبى وسيأبى الدهر جر الأداهم

لغة الصمت (★)

ان رأيت الروض فتاناً وقد وافى الربيع
ولمحت الزهر من بسمته العطر يفوح
وسمعت الطير تشدو غبطةً بين الفروع
سبح المبدع ، لكن . . . بسكوتك

. . . .

ان للصمت بياناً لايضاهيه بيان
ليس الا العرض التافه مايبدي اللسان
واللباب الصرف يبقى خافياً طيّ الجنان
فاجعل الجوهر قولاً . . . بسكوتك

(★) ديوان (السهام) ص ٧٨

(★) من ديوان بسمات الفجر ص ٦ ، وهو مطبوع في الارجنتين عام ١٩٤٠

في كنف الظلام (★)

لئن لـذ للعـاشـقين اللقـاء فأحـلاه ما كـان تحت الظلام
تطـل عليهم نجـوم السمـاء ويـرمقهـم ربهـ بـاحتـرام

. . . .

ليالـي حيـاتـي فـدى ليلـة حبتني أفضـل مـا في الحيـاة
سرى كهرب الوجد مـن مهجة الى مهجة يحمـل الخفقات(★)

. . . .

وحرك في الروض روح الشعـ ـور عناق حبيبين قبل النوى
فمن نـوره المستهـام الغيـور ومن طيره مـن شجـاه الهوى

الى متشائم (★★)

كن صباحـاً لمن توالت عليـه ظلمـات الـخطـوب والأرزاء
وابتسـاما لمـن تحمل ما يدمي لـه القلب من عبوس القضـاء
وعـزاء لمن تخلـى وداد النـا س عنـه في الشـدة العسـراء
أنـت جـزء من الأنـام فـلا تعرض بزهوٍ عن سائر الأجزاء

(★) من ديوان (بسمات الفجر) ص ١٣ .
(★★) من ديوان (بسمات الفجر) ص ٢٨ .
(★) وردت هكذا في الديوان.

ياليت (*)

يـا ليـت عـزي بقلـب	يـفيض عـطفـا وحبـا
اذا رأيـت فقـيراً	علـى الكـوارث دبـا
حملت عنـه الدواهـي	ورضت ما كـان صعبـا
فـراح يشدو اغتبـاطـا	ويـرشـف الرغـد عذبـا

. . . .

وان عرفـت يتيمـا	عليـه جـار الزمـان
أسْمـالُـهُ لشقـاء	يحتـاجـه تـرجمـان
تَخِـذتُـهُ لـي شقيقـاً	يـرضيـه مني الحنان
ففيـأتـه غصـون	يطـل منهـا الأمـان

. . . .

اني الـى الخـير ظـامٍ	ولسـت أملـك وردا
الامَ يرسـم غـيري	لمـا أحـاول حـدا
يـاليت كـل فـؤاد	يـذوب عطفـاً ووجـدا
فيسعـد النـاس حـب	وتصبـح الأرض خلـدا

(*) من ديوان (بسمات الفجر) ص ٣٤ و ٣٥ .

سراب (*)

ردي عليَّ عواطفي وسلامي ... وخذي غنائي وشهرتي ومقامي
أجهدت قلبي واغتصبت صفاءه ... وحجبت عنه موارد الالهام
ما كان يخطر في حناياه سوى ... أحلى المنى أو أشرف الاحلام
فاذا به من سحر وعدك قبضة ... من غيهب لا ينجلي وركام
كان الجمال عقيدة في فنه ... فغدا مثابة شهوة وضرام
أغريت عيني بالنقوش فلم يعد ... في ناظري الا نقوش الجام
ورسمت لي ما في سبيلك حالما ... بطرائف عزت على الرسام
فمضيت أركض حيث شئت فلم أجد ... غير الصحارى والخطوب أمامي
أنا ما خلقت لكي أذوب سآمة ... في الظل بين نمارق ورخام
أنا لست من أنصار فورد وان يكن ... أنسى الأنام ركوبة الاقدام
أنا قد ربيت ببيت فقر لم يكن ... فيه سوى الألبان والفحام
أنا للصبابة والعواطف والهوى ... أنا للبكا والمدح والالام
أنا في محيا الفقر عبسة يائس ... أنا في فؤاد البؤس أنة دام
أنا للخشونة والخصاصة والجفا ... أنا كل محروم وكل مضام
أنا في ارتجاج الكوخ أحب راحتي ... ويهزني بالعجب ثوب الخام
ما كان أعباني وقد خلت الغنى ... أربي ، وجاه المال كل مرامي
لمع السراب فرحت أركض خلفه ... ونحرت عند بريقه أعوامي

• • • •

(*) القصيدة التي انشدها الشاعر اثر عودته الى الوطن عام ١٩٥٥ . وكنا قد عرضناها في كتابنا (الحنين واللقاء في شعر المهجر) ، وقد افتتح بها الشاعر ديوانه الاخير (الحان الغروب) ص ٩ ، نشر اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ١٩٧٨ .

ما أسخف الفنان يحيا تاجراً ... ليموت بين دلالة وسوام؟
هيهات يرضى بالزحام على الحصى ... من كان يملك مسبح الاجرام
العبقري رسالة علوية ... أو ما عرفت عجائب الاقلام
يسدي النبوغ الى الحجارة سره ... فاذا بها روح بدون كلام
ما الورد لولا الشعر غير فسيلة ... بالنور مثقلة وبالأنسام

. . . .

هذا غريبك يا بلادي عاد من ... أرض الدراهم عودة استسلام
قضى ليالية وبين ضلوعه ... نار تعج بشوقه النمام
لولا الرجاء بأن يعود اليك ما ... حمل الذي عانى من الايام
لا تعجبي لبكائه ما دمعه ... الا شعور سعادة وغرام
ان التجلد في اللقاء محرم ... أما البكا فيه فغير حرام

. . . .

هذا التراب مقدس ذراته ... دفقات مجد زاخر مترام
من ذا يجاري المجد في تاريخه ... والى السماء يمت بالأرحام
فيه بقايا الناشرين على الورى ... خير العلوم وأنبل الاعلام
المبدعين بجودهم وبعلمهم ... دنيا تميس بكل مأتى سام
الهادمين بحقهم وبجهدهم ... في (ميسلون) معاقل الظلام
اسأل صلاح الدين يوم تجمعت ... عُصَب الى شرب الدماء ظوامي
خبر الفرنجة منه ما العربي في ... كرم الخلال وساحة الصمصام

. . . .

وطني ولو نحتوا بهاك وأنصفوا ... ما كان يُعذل عابد الأصنام
في كل شبر من ترابك معرض ... للفضل والعزمات والاقدام
أملي وقد شاهدت بندك سيداً ... ، بالحق ، أن يطوي ثراك عظامي

شاعر في مدينة (*)

أحنُّ الى الحقل الذي كان ملعبي ... وأشتاق عهداً كان للطهر موسما
صبياً يعد الزهر زينة لهوه ... ويعتبر الأرواح نوعاً من الدمى
ويدرك من شدو الطيور مَرامَها ... وتدرك منه ما ابتغى ان تكلما
يجوب كما يهوى معالم قرية ... عليها سلام القلب والعقل خيّما
تفاهم أهلوها فكانوا قبيلةً ... تؤلف من معنى التساهل معجما
فلا حسد يستنزف الصبر حرقة ... ويجعل ارث العزم نهبا مقسما
ولا ريبة تطوي بذار عداوةٍ ... تؤجج نيران الحقود تكتما
لئن حرمت أجسامهم من رفاهة ... فأنفسهم تلقى الرفاه المجسما
تشدد آلاء القناعة حيلهم ... فيجنون منها للمناعب مرهما
أحاديثهم فيها العواطف تنجلي ... ولا ينجلي فيها الرياء منمنما
اذا صافحوا ماصافحوا عن تسانق ... ولاستروا بالمين بغضاً مذممّا
وان حزنوا لم يزدهوا بحدادهم ... ولم يشتروا في السوق للبذخ مأتما

. . . .

متى ينتهي أسري وتنفك شدتي ... وأترك جواً بالمشقات مفعما
فأصرف في الحقل الذي كان ملعبي ... بقية عمرٍ بالعراك تصرما ؟

(*) ألحان الغروب ص ١٨ و ١٩ .

أديب (*)

ماذا استفدت من اليراع وقد ذوى ... في ظله عمري وكان رطيبا
قضيت أعوامي على جمر القضا ... أتكبّد الحرمان والتعذيبا
وسهرت أمنح من كبت آماله ... أسمى الحنان مؤاسيا وطبيبا
ما جد مثلي اللابسون لفوزهم ... ثوباً من الرغد الطريف قشيبا
لكنهم حصدوا وكان حصادهم ... مما ابتغوه ليّناً وخصيبا
زلاتهم ـ مهما جنوا ـ مغفورة ... لا تستحق اللومَ والتأنيبا
أما أنا فمزالقي مرصودة ... حتى ، وان هانت ، تعد ذنوبا
مهما ابتعدت عن العيون تسترا ... ألفيت حولي من يحوم رقيبا
حظي من الايام أن القى العنا ... أو أن أعزي التاعس المغلوبا
اني منحت الناس خير مواهبي ... وتركت ذاتي معدماً منكوبا
في كل سفرٍ دَبجته يراعتي ... قلب يسيل على السطور وجيبا

• • • •

قالوا ستحرز في الخلود مكانة ... تصلى قلوب الحاسدين لهيبا
فأجبت ما جدوى البقاء لبائسٍ ... خاض الحياة كوارثا وخطوبا
كالطفل يلهو بالحصى ويظنها ... جيشاً يكرّ على العداة رهيبا
ما دام (نيرون كغندي) خالدا ... فالخلدُ أسخف ما يكون نصيبا
لكنني رغم الذي قاسيتُه ... متبصّرا ، وعرفته تجريبا
لو قيل لي كن ما تشاءُ على الثرى ... ما اخترت الا أن أكون أديبا

(*) ألحان الغروب ص ٣٦ و ٣٧ .

الخيـال (*)

يسيء الكثيرون من الشعراء فهم الخيال ، اذ يحسبونه مبالغة لا يقرها المنطق القديم ، ومغالاة لا يقبل بهـا العقل الصحيح ، ومتى أراد أحدهم أن يكون بعيد الخيال جلد قريحته لتقدم له صورا متدثرة بثياب غريبة من الغرابة ، فاذا حبيبته قد خلقها اله غير الاله الذي أعرفه وتعرفه ، واذا دموعه تجري كالأنهار ، وتكاد تأخذ في طريقها جميع ما تصادفه من حيوان وجماد ، واذا بدعائم الكرم والجود تهوي ، يموت صديق له ، واذا بالملائكة تتهلل فرحاً في السماء لولادة صبي لنسيب له، واذا أفكاره جميعها على هذا النسق العجيب .

أما الخيال الـذي نفهم شيئاً منـه ، فبعيد عن ذلك كل البعد ، هو الوثبة التي تسربـل فكر الشاعر في حالـة أشبه ما تكون بحـالة الغيبوبة ، هو الرغبة التي يحنو عليهـا الشاعر وقـد غمرته سحابة من الالهام الفني ، هو التجرد من عوالم المادة ، والانطلاق من حدود الزمان والمكان . هو الحقيقة الراهنة التي لا تلمسها اليد ، بل يلمسها الشعور ، ولا تنظرها العين بل تنظرها العاطفة ولا تسمعهـا الاذن بل يسمعهـا الاحسـاس .

(*) من كتابـه أصنام الادب ص ٧ ، والكتـاب مطبوع في بوينس ايرس عـام ١٩٣٩ .

الشعر التجاري (*)

أفدح ما نُكب به الادب العربي هو الشعر التجاري الذي تمن علينا به فئة حرمتها الطبيعة رقة الاحساس ، ونضوج الفكر ، وصدق الخيال ، فراحت تعوض عن ذلك بألفاظ جوفـاء ، وعبارات سقيمة المعنى ، وتقدم لنا صوراً لا تناسب فيها ولا تناسق .

الشعر التجاري هـو هذه القصـائد التي تطالعهـا وتنتهي من مطالعتها فلا تهز شعورك ، الا كما تهز شعورك مقالة يثبت فيها صاحبها أن الشمس سيخمد نورها بعد مائة مليون سنة ، وسيعم الوجود اذ ذاك العـدم الشامل .

الشعر التجاري ، هو هذا النظم الذي يشبه (القوائم التجارية) اذ ينبري الناظم للوصف ، فيأخذ بتعداد الاشياء التي يراها كما يعدد التاجر الاشياء التي يقدمها لعميله .

خمسة أمتار من الخام توازيها في الشعر التجاري : خميلة غناء .

عشرة أرطال من العدس تقابلها في الشعر التجـاري : فتاة ذات عيون نجـلاء .

عشرون ليتراً من الزيت تماثلها في الشعر التجاري : سماء صافية ليس فيهـا غيمـة .

هذه (مسطرة) صغيرة من هذا النظم البليد الذي كثر في الآونة الأخيرة كثرة هائلة توجب اتخـاذ التدابير الصـارمة خوفا من وخامة العـاقبة .

(*) أصنام الادب ص ١٧ .

شهـداء سوريـة (★)

ليس بين شعوب العـالم شعب رصع سماء جهاده القومي بنجوم الاستشهاد كما رصع الشعب السوري في أعوامه العشرين الاخيرة . ان حلقات التضحية في سبيل الكرامة ، تواصلت في سورية تواصلاً — لو كان في الدنيا انصاف وعدل — لكان وحده الكفيـل بأن يضع بلادنا في طليعة الامم لتخطيط السبيل الى الكمال المنشود .

دام الانتداب الفرنسي ستة عشر عاماً ، وكانت كل حفنة من حفنات ظلمه في هذه المدة الطويلة يقابلها في الكفة الثانية نصيبها من الدم السوري الشريف ، من دم الشباب الناهض ، من ذلك الدم الذي يجترح العجيبة المنتظرة منه ، متحولا الى حجج قاطعة ، على أن أبناء سورية يتحملون العذاب ، ولكنهم لا يخنعون له ، ويرهقهم الحديد ، ولكنه لا يذل في نفوسهم الاباء العربي المشهور ، وتتناولهم المظالم ، ولكنهم على الرغم منها ، يلبثون غـُرة في جبين المجد والسؤدد .

ان الشهيد ليؤدي ، في عالم الوطن ، ما يؤديه الانبياء في عوالم النفس . يرسل الانبياء الى الناس ليرشدوهم الى الحق الالهيّ ، والشهيد يبعث الى بلاده ليهدي أبناءها الى الحق الارضي . وكما يكون لكل نبيٍ ظاهرة تفوق طاقة الانسان ، يبث بواسطتها رسالته ، كذلك تكون للشهيد آياته الخارقة في اعراضه عن الحياة ، واحتقاره ملذات العمر ،

(★) من خطاب القى في حفلة وطنية لتكريم الشهداء في كانون الاول عام ١٩٣٦ . كتاب البقايا ص ٨ .

واستقباله الموت راضياً ، وما هذه الظاهرة بالهينة ، وقد سكب الانسان حريصاً الى آخر حدوده الحرص على كل متعة يراها . واذا كان ثمة من فرق بين الشهادة والنبوة ، فهو في أن طريق النبوة لا يلجه الا من يريد الله أن يلجه ، وأبواب الشهادة مفتوحة على مصاريعها لمن يريد أن يخدم وطنه ، ويكون صخرة في أساس البلاد ، وقبساً في شمس الكرامة ، ونبضة في فؤاد السيادة .

ان قطرة واحدة من دم الشهادة ، أو مجلى واحداً من عذاب التضحية ينفع البلاد أكثر مما ينفعها مدفع جبار من العيار الثقيل ، ذلك لأن المدفع قد يتحطم ، أو يؤسر ، أو يفضي الى العدو ، فيكون على البلاد لا لها ، ولكن دم الشهيد الميت ، وعذاب الشهيد ، هما قوة خالدة ، هما تذكير دائم لأبناء الامة بأن عليهم واجباً هو واجب عدم التفريط بقدسية الوطن ، وبذل الغالي والنفيس للاحتفاظ بحريته ، وبالحرية التي هي ميزة تثبت أن النفس الانسانية مخلوقة على صورة الله ومثاله .

الفكرة العربية (*)

... وتقوم الآن في قسم من أقسام سورية العزيزة ـ في لبنان ! ـ فكرة غريبة ، هي الفكرة الفينيقية ، وتلقى بعض المجندين من أصحاب الهوس البعيد عن المنطق ، ولكن هذه الفكرة ستموت ، وستشمل ربوع الأرز ـ مرة جديدة ـ الفكرة العربية ، لأن الفينيقية والكردية والفرعونية ، فكر لا تستند على شيء من الحق ، والنزاهة ، والتاريخ . أما الفكرة العربية ففيها قوة التاريخ المجيد ، وجبروت الحق الساطع وعظمة النزاهة الوضاءة .

ستظل فلسطين عربية (*)

... واننا لنعلن أن تلك الارض التي درج عليها المسيح، وأسرى اليها محمد ، لن تكون في يوم من الايام وطناً قوميا للمتشردين الذين أضرموا نيران الفتن في العالم . بل كانت فلسطين وطننا ، وستظل وطننا ما دام على وجه الارض عربي واحد ، تجري في عروقه دماء الاباء والشرف .

(*) من خطاب القي في كانون الاول عام ١٩٣٧ . البقايا ص ١٠ .

(*) من خطاب القي في حفلة تأبين الملك غازي في آب عام ١٩٣٩ .

عيـــد الفطر (*)

... أما أنا فنظرتي الى الدين أوسع ، اذ هو عندي صلة متينة تجمع القلوب الى بعضها ، ووسيلة فعالة ترقق شعور الانسان وترفعه الى أعلى درجة ممكنة من الكمال . والاديان في جوهرها واحدة فمن لا يحترم دين غيره فهو يسيء على الله ، وعلى الناس ، وعلى نفسه ، وان هزل جسمه وامحت ركبتاه من الصوم والصلاة والسجود .

ان هذا العيد عيد عربي قبل أن يكون عيدا اسلامياً ، لأن المصلح الاكبر ، الذي يخصص هذا النهار لذكرى فرض من فروض تعاليمه . هو أول من وضع أسس القومية العربية ، وهو أول من بث في نفوس العرب ـ مع تعاليم الدين ـ ثقةً ذهبت الخلود بصفحات المجد والسؤدد .

ان المسلم العربي الحقيقي ، والمسيحي العـربي الحقيقي ، سواء في تقدير الرسالة التي رفع لواءها فتى قريش ، فان كان المسلم يكرم في محمد أعظم نبي ، فنحن ـ المسيحيين الاحرار ـ نكرم فيه أعظم بطل أنجبه التاريخ العربي .

وهل أدل على عظمة البطولة في النبي من تلك الانتصارات المتوالية التي انعقدت على ألوية الفتوحات العربية ، والتي رأى فيها الكثيرون من حملة الاقلام في الشرق والغرب سراً من أسرار التاريخ ؟ لقد كانت روح النبي العربي ترفرف على تلك الجيوش ، وكان قوادها المجاهدون العرب يقتبسون من آيات محمد ، ومن حياة محمد ، المشاعل التي تهدي الطريق أمامهم ، فبسطوا سلطانهم على العالم الذي كان معروفاً آنئذٍ ، ونشروا باسم الله ، وباسم محمد ، وباسم العروبة ، السعادة التي تبحث عنها أوروبا ـ والضلالة تقودها ـ بين المدافع والطيارات يحركها طمع لئيم ، وخداع الأمم .

(*) من خطاب القاه الياس قنصل في حفلة عيد الفطر في كانون الثاني ١٩٣٩ . البقايا ص ٢٠ .

أشرف الرسالات الادبية والعربية (★)

يأخذ بعض الناس علينا ـ نحن الادباء العرب ـ صرف كثير من جهودنا على القضية الوطنية ، ورصد القسم الاكبر من منتوجاتنا على استنفار الهمم لتسعى الى الاستقلال المنشود .

ويردد أمامنا هؤلاء قولهم : « ان الادباء يجب أن يكونوا انسانيين ، لا تقتصر آثارهم على القوميات ، ولا تتغلف نفثاتهم بالعصبيات ، ولا تعترف بنات أفكارهم بالحدود، على الادباء أن يشملوا بالحب والود او الانسانية كلها ، وأن يدعوا جميع الناس بلا استثناء الى التصافي والتعاطف .. »

هذا شيء مما يقولونه ، ناسين أننا ـ ونحن الملتهبين حماسة لوطننا ـ أشد الادباء حباً للانسانية ، وعطفاً عليها ، وأننا ـ بحماستنا تلك ـ نؤلف دعائم راسخة للاصلاح العالمي كافة .

اننا نحب الانسانية ، لأننا نحب بلادنا ، اذ هي جزء من الانسانية، ونعطف على العالم أجمع ، لأننا نعطف على قسم منه هو اخواننا . ان اصلاح وطننا تتمة لاصلاح الكون ، والعطف على أبناء أمتنا تكميل للعطف على بقية خلائق الله . ولو أن الانسانية عرفت في الهناء الى عنقها ، ولم يبق فيها الا وطننا يعاني من التعاسة ، لما كان هناء الانسانية كاملاً .

(★) من مقالة له . البقايا ص ٢٦ .

اننا نبدأ بالحب من طرفه الاول ، فنحب وطننا بادیء بدء ، حتى اذا تم حبنا له بالاستقلال ، أصبح في مكنتنا أن نحب وطن غيرنا . أما أن نحب وطن غيرنا وهو سعيد باستقلاله ، ونترك وطننا وهو يعاني مالا يحصى له عدد من المصائب والكوارث فشبيه بأن يغادر والد ابنه على سرير المرض الوبيل ، ثم يتحول الى الحوانيت بحثا عن لعبة جديدة يقدمها الى ابن جاره الناعم بالعافية ، المحفوف بقبلات والديه وحنوهما .

ماذا تقولون أيها اللائمون عن ذلك الوالد ؟ ألا تصدرون عليه وأنتم على صواب ــ أقسى الاحكام ؟

★ ★ ★

أقصوصـة (*)

رأيتها متغيرة جدا عما عهدتها قديما ، كأن كل شيء فيها قد عدت عليه يد الدهر • عرفتها في الوطن مثـال الحياء ، عرفتها اذ كانت تجيء بين الحين والآخر الى بيت احدى الجارات ، هي وجمـع من الفتيات ، وكنت أغتنم فرصة مجيئهن ، فاخترع حيلة من الحيل ، وأمر على جيراني، ومتى رأتني البنات تتغامز العيون ، ويبـدأ الحديث ، وكانت الفتيات يتضاحكن لمزاحي ، وكانت بينهن دائما فتاة لاتمتاز عن غيرها بجمالها ، امتيازها بهدوئها ، فلم تكن تبسم الا قليلا ، ولم تكن تتحدث الا أقل من القليل ، ولطالما جرحت سكوتها ببعض الكلمات اللاذعة ، فيصطبغ وجهها بحمرة الخجل ، أما أترابها فتتعالى ضحكاتهن •

هذا ما كان يحدث مرة في الاسبوع تقريبا ، وكان لي على جيراني دالة ، لايمنعني الحياء من سؤال ابنتهن عن ميعاد مجيء رفيقاتها •

ثم ضرب الدهر بيننا ضرباته ، فتركت بلادي الى العالم الجديد ، ركضا وراء الذهب الذي كان هدف الناس جميعا ولا يزال كذلك •

كلا • انني كنت أقدر أن جميع اللواتي ذكرتهن يمكن أن يجئن الى اميركا خلا تلك البنت التي كانت تتدثر بالوقار والحشمة •

ولكن (الدهر أبو العجائب) كما يقول المثل •

وها هي تلك الفتاة الحيية أمامي ، ولو لم تكن قد احتفظت بميزات جمالها التي نضجت فيها ، لقلت في نفسي : انها غير تلك الفتاة •

(*) الاقصوصة الثالثة المنشورة في كتاب (البقايا) الصادر بالارجنتين عـام ١٩٤٠ .

هاهي الآن أمامي مرة أخرى في بيت صديق لي ، وها هي تتناول الحديث في المجلس ، فيكاد يكون حصتها وحدها ، وهاهي ضحكتها تعلو لي بين الفينة والفينة ، وها هي تطرب للنكتة البارعة التي كنت أسوقها أنا متى قيض لي الحديث •

لم أشأ أن أسألها عن أسباب تغيرها ، واقتصرت على تذكيرها بتلك الساعات الصبيانة الاسبوعية تذكيرا سطحيا ، فلم تزد على أن قالت :

ـ ألا تزال تذكرها ؟

وانقضت تلك السهرة ، وودعتني كما ودعت بقية الحاضرين •

بعد شهرين من تلك المقابلة اضطررت الى اهداء ثوب الى نسيبة لي في عيد ميلادها ، ولما فكرت بهذه الهدية خطر لي أن تكون تلك الغانية هي التي تقوم بصنعه ، فطلبت من صديقي عنوانها ، وفي اليوم التالي قرعت الباب •

كان استقبالها لي استقبالا وديا الى أبعد حدود الود •• ثم عرضت عليها ماجئت من أجله ، فأجابت بالرضا • والحديث ذو شجون • فبدأته هي وأخذت تسألني عن حياتي فقصصت عليها بعض خطوطها بصورة مقتضبة ، وسألتها عن كيفية مجيئها الى العالم الجديد ، فقالت :

ـ كان لي ابن عم في هذه الديار ، فأرسل يخطبني من والدتي ، فشاورتني في الأمر ، وقبلت • وبعد وصول رسالته الثانية بشهرين ونصف سافرت من الوطن بصحبة أسرة قادمة الى هذه المدينة ، وفي نفس اليوم الذي وصلت فيه ، تلقيت النبأ المفجع بموت ابن عمي ، الذي جئت لاخطبه ، اثر مرض فجائي •

وبعد أن أصلحت محدثتي جلستها قليلا تابعت •

ـ تمثل شقائي في تلك الآونة ، لم أكن أعرف أحدا ، ولا لديَّ

مال استعين به ، فدعتني تلك الاسرة الى البقاء معها مدة فرضيت • ولكن عقب مرور اسابيع شعرت أن رب الاسرة أخذ يبدي لي كثيرا من التودد، وشعرت أن امرأته لاتخلو من بعض الغيرة ، فرأيت الواجب يدعوني الى الارتحال من تلك الدار • وفي أحد الأيام أعلنت عزمي لهما ، وها أنا الآن هنا •

فاقتنعت بكلامها ، ولو أنها لم تكشف لي عن الفترة التي انقضت بين انتقالها من دار تلك الاسرة الى هذه التي تعيش فيها عيشة أقرب الى البذخ •

وعدت بعد أيام الى زيارتها ، فاستقبلتني كعادتها ببشاشة ، ودعوتها الى حضور رواية تمثيلية في المساء فلم تمانع • وأخذت الالفة تتوطد بيننا حتى ارتفعت الكلفة •

لقد كانت تعيش وحدها ، كما أعيش وحدي ، فليس ثمة من أحد يعكر صفونا المحدود •

على أن حيرتي كانت لاتزال متغلبة علي من هذا التغير الجوهري الذي طرأ على أخلاقها ، فاذا سألتها أجابت :

ــ هي الحياة وتقلباتها •

ولم تزد على ذلك الا ابتسامة فيها كثير من المعاني ، وزاد من ريبي وقوفي على اختبارها شؤون الحياة ، ودخلت عليها ليلة فوجدتها مستلقية على سريرها ، فجلست بالقرب منها ، وشرعت أداعب شعرها ، وألححت عليها في السؤال عن توفقها الى هذا البذخ الذي تنعم به ، على الرغم من أن مهنة الخياطة التي تمتهنها لم تكن لتدر عليها أمثال ما تصرفه من أموال •

فتنحنحت قليلا ، وأسندت كتفها الى الوسادة وقالت لي :

ـ لقد ألححت كثيرا ، فـاذا كان لابد مـن مصارحتك بالحقيقة فاليكهـا :

بعد خروجي من دار تلـك الاسرة التي أخبرتك عنهـا ، اسودت الدنيا في عيني ، فرحت أبحث عن عمل شريف أربح منه لقمتي أولا ، ثم لقمة أمي الباقية في بلادنا ثانيا • فوجدت أعمالا عديدة ، ولكن أرباب العمل كانوا يستخدمونني ، وفي نفوسهم غايات ، فتركت العمل الاول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، وقلت في نفسي مادام الناس لايريدون أن يدعونني أعيش شريفة ، وما داموا يريدون أن أتناول اللقمة من بيع جسدي ، فلأبعه ، ولكن فلأبعه غاليا على الاقل •

وهكذا عرفت الرجل الاول ، فالثاني ، فالثالث ، وقد أغدق عليّ هؤلاء الرجال كثيرا من المال كان بوسعهم أن ينفقوا جزءا يسيرا منه ، وأنا أعمل عندهم بشرف •

ثم تنهدت تنهدة خفيفة وقالت :

ـ ولا اكتمك انني بذلت جهدا عنيفا لاكون بعيدة عن الظنون ، لان المرأة التي تشتهر بتهتكهـا تصبح رخيصة ، أما التي تستطيع أن تحافظ على سمعتها فالمال يتوفر لديها ، وما مهنة الخياطة ، التي لي قليل من الالمام بها ، الا نقابا لستر ما أنا فيه •

قالت هذا ثم قربت وجهها الى وجهي ، فطبعت عليه قبلة حارة ، ومسحت الدمعتين اللتين انحدرتا من مآقيها •

قصة لـم تكتمـل (★)

دخـل عليّ في مكتبي شاب أنيق المظهر ، بعد حياني باحتـرام قـال لي :

ـ أتسمح لي بدقائق من وقتك ؟ قلت : ـ تفضل • فقال :

ـ قد يبدو لك أمري غريبا ، ولكنني سأشرحه باختصار •

ثم اقترب مني ، وانتشل من جيبه كدسة من الاوراق ، وتابع :

هذه رسالة كنت أنوي أن أبعث بها « اليها » غير أني خشيت أن يكون في ارسالها مسؤولية عليها ، فرأيت أن أقدمها اليك ، لتنشرها على صفحات الجريدة التي تحررها ، فلا بد أن تطالعها •

فسألته : ـ ما القصة ؟ فأجـاب : ـ ستعرفها من مطالعة هـذه الاوراق • واني اتركك الآن على أن أعود اليك بعد أن تنشرها ، ووقف وودعني شاكرا •

فبسطت الاوراق ، فاذا فيها ما يلي :

ـ يا فلانة ••• أما وقـد انتهى بيننا كل شيء ، فاني أبعث اليك بهذه الرسالة لاجلو لك الاحاسيس التي ساورتني في الاسابيع الاربعة التي عرفتك أثناءها •

ماكدت أراك للمرة الاولى في المعمل الذي كنت تضربين فيه على الآلة الكاتبة ، حتى شعرت بأن آفاقا جديدة تنفتح أمام روحي ، وبأن الحياة يتبدل معناها في نفسي ، وتركزت نظراتي في وجهك الفتان ، كأن

(★) اقصوصة من مجموعة (من مناهل الحياة) ص ٨٣ وما بعد .

ارادتي قد سلبت مني بمسحة ساحر . ورنوت أنت الي رنوة انطوت على شعور جامد من اللامبالاة . ولكني على الرغم من ذلك ، أدركت أن القدر أراد أن يصل بيني وبينك بوثائق من التفاهم ، وأدركت أن نظراتك ستكيف حياتي تكييفا لايد لي فيه .

وهكذا كان ... فقد طلبت من مدير المعمل أن ينقلني الى الدائرة التي تعملين فيها ، وقد عرته الدهشة لطلبي ، فهو انحدار في سلم التصنيف ، مع أني كنت مرشحا للصعود ، مكافأة على اجتهادي ودأبي.

ولم يعلم مدير المعمل بقصدي ، ولو علم لما رضي بما طلبت .

وتمت لي السعادة ، فها هو مكتبي قبالة مكتبك ، وهأنا استطيع أن أنظر اليك كما أشاء ، وهأنا في وسعي أن أتحدث اليك كما أريد .

وبدأ الحديث ، كما يبدأ عادة ، بين اثنين يشتغلان في مكان واحد: أسئلة عن العمل ، وأجوبة عليها ، ثم أخذ يمتد شيئا فشيئا الى مواضيع اخرى ، وكنت مثلك ، أحرص كل الحرص ، على ألا ينتبه الينا الموظفون حولنا ، فان سدد الينا أحدهم نظراته ، تظاهرنا باننا نتكلم عن شؤون لاتخرج عن نطاق الزمالة .

وأخذت عباراتي تنتقل الى اظهار شعوري نحوك ، فكنت تصغين اليها دون أن يبدو على وجهك أي أثر للتجاوب الفوري ، ولكنك كنت تصغين اليها ، وكان هذا يكفيني .

وشرعت ، أنت ، في غفلة من رفاق العمل تخبرينني عن حياتك ، وعن حياة ذويك : ما تقوله أمك أحيانا ، وما تفضي به اليك اختك ، أحيانا اخرى ، وما أسرته لك صديقة ، أحيانا ثالثة .

وأخبرتني عما تستحسنين من مباهج اللهو والتسلية ، وعما تختارين من كتب المطالعة الى غير ذلك مما جعلني أدري من أمورك جميع ما يهمني وعرفت أنت من مؤدي كلامي أني لم أطلب نقلي الى هذه الدائرة الا

لاكون قربك ، وتأكدت من صدقي ، من خلال ما سمعته من المدير نفسه، ومن بقية الموظفين عن امكانياتي في الترقي والنجاح •

لقد كنت ألحظ أنك تهتمين بي ، غير أني لم أدر ما (نوع) هـذا الاهتمام على حقيقته ، وان كنت أقدر أنه من (النوع) الذي يطمئن اليه خاطري •

وما دمت قـد وعدتك بأن أجلو لـك عواطفي ، كما هي ، فاني أصارحك بأن تلك اللحظات ــ ولا استطيع أن أسميها الا لحظات ــ التي قضيتها بالقرب منك لم تكن كلها سعادة • كانت تشوبها اللوعـة : لقد كنت أشعر بسموم الغيرة تسير في دمائي حين كنت تنظرين الى بقية رفاق العمل ، وكانت هذه الغيرة تصل الى فورتها اللاهبة حين يدعوك المدير الى مكتبه الخاص ، ليملي عليك رسائل العمل • وأصبحت أكره المدير كرها لاحد له ، وكنت أقول في نفسي : ألأنه يقدم اليك في آخر الشهر راتبا ، يباح له أن يدعوك الى مكتبه ساعة يشاء ؟

ولا اخا لك الا ذاكرة أني في احدى المرات التي دخلت مكتبه ، ثارت في نفسي براكين الغيرة ، ففتحت الباب ، ولم أعبأ باللافتة التـي تطلب ممن يريـد الدخول أن يقرع الجرس ، اقتحمت الباب ، وأنـا لا أدري ما أفعل ، وأدعيت أني أريد سؤاله عن أمر ، فرأيته جالسا وراء مكتبه على كرسيه ، ورأيتك أنت مستندة بذراعيك على المكتب ، بعيدة عنه ، وبيدك ورقة تكتبين فيها مايليه عليك ، وامتقع وجه المدير لهـذه المباغتة التي لم يكن ينتظرها ، وسألني بجفـاء عما اريد • فاعتذرت وخرجت • صدقيني ، وقد مضى الآن على ذلك الموقف زمن ، أني لو رأيت معه ما يريب ، لما تقاعست عن الاقدام على عمل ألام عليه •

لقد وصلت غيرتي الى الحد الذي كاد يصبح جنونا أو أشبه شيء بالجنون • كنت أرقب جميع حركاتك وسكناتك ، وأستطيع الآن أن

أقوال اذا أردت ، ماذا كنت تصنعين في كل ساعة من ساعات الاسابيع الاربعة الماضية •

وكنت أتمنى من صميم فؤادي ، لو ينجلي لي مبلغ شعورك نحوي فقد كنت في الايام الاولى (جامدة) جمود الصنم ، تنظرين الي ، كما تنظرين الى الاثاث في المكتب ، وتنصتين الى حديثي ، كما تنصتين الى حديث لايهمك • كانت تلـك الايام صعبة علي ، فقـد كانت تتنازعني عاطفتان مختلفتان : كنت أقدر أنك تبادلينني الحب المكتوم ، فأحس كأن الدنيا لاتسعني لفرط حبوري ، ثم أعود فأقدر انك لاتحفلين بي ، فاذا أنفاسي تضيق ، واذا بي أوشك أن انفجر بالغضب واليأس • الى أن كان أحد الايام ، وقد انقضى دوام عمالك ، فارتديت معطفك ، وهممت بالخروج ، وأطل المدير ، وسألك : هل يمكنك الرجوع الى العمل لانهاء مالديك من مكاتبة ، فأجبته : سأرى •••

وعاد الى مكتبه ، فتأملتك ، في غفلة منه ، وسألتك بغمزة من عيني ، فأجبتني بغمزة من عينيك • وكانت غمزتي معناها : أخبريني اذا كنت سترجعين لابقى في المكتب » • وكانت غمزتك معناها : انتظرني فسأعود » •

ورجعت أنت ، وكنت أنا قد اتخذت من تراكم العمل على مكتبي حجة للبقاء بعد أن انصرف فريق مـن الموظفين ، وليس في وسعك أن تمثلي السعادة التي غمرتني اذ ذاك •

كانت تلك الغمزة خير مكافـأة لي على الساعات العديدة التـي قضيتها في الليالي السابقة أتقلب على أشواك القلق ، وأنا أفكر فيك • كانت تلك الرقة السريعة من لحظك تأكيدا لي ، أنتظره ، على أحر من الجمر ، أياما كثيرة •

واضحكي مني ، اذا شئت ، لقد عدت الى بيتي تلك الليلة ، فطلبت من الخادمة أن تأتيني بكأس من المشروب • واستغربت المرأة طلبي ، فلا عهد لها بي أني أشرب ، ولم ترني ، وقد مر عليها في داري أكثر من سنة أني تناولت مشروبا ما ــ مهما كان ــ •

وتشجعت في الأيـام التي تلت ذلك اليوم على الكـلام اليك بصراحة • حدثتك عن غرامي ، فابتسمت بسمتك الفتانة التي هي عبقة مثل زهرة في روضة غناء ، وهي دفقة من نور على المرتقب المنتظر •

حدثتك ، وأصغيت لحديثي ، وتفاهمت الروحان •

ومرت الأيام ، وكنت أقبل على عملي فرحاً مسروراً ، ألست أنت الى جانبي ؟ لم أكن أطمع بأكثر •

سألتك مرة ، ألا تذكرين ؟

ــ أليس حبنا عميقاً ؟

فقلت : ــ لماذا ؟

قلت : ــ ألست ترين أن شيئا يقف في طريقنا الـى السعادة التي كان من حقنا أن نأملها ؟

فأجبت :

ــ ان ذلك يقف دون تفاهم الاجسام ، أما الأرواح فما من قوة على وجه الأرض تستطيع أن تقف دون تفاهمها •

ثم أردفت : ــ لاتقل « حب عقيم » ، بل قل « قصة لم تكتمل » •

فعدت الى سؤالك :

ــ وما تكون تتمة هذه القصة ؟

فكان جوابك : ـ لا أدري دع الزمن يكملها ، فقد تولى اكمال جميع القصص التي تشابهها .

وكان اليوم الثاني يوم عيد في المعمل ، فقد احتفل المدير بانقضاء سنة على افتتاح فرع جديد ناجح ، ودعينا الى حفلة شاي في الردهة الكبرى .

وكان جلوسك قربي ، ولم يتسع لنا أن نتحدث ، فقد كانت الانظار مصوبة الينا .

وجلست لتضعي فنجان الشاي مكانه ، فلمست زندك يدي . ولا أعلم اذا كانت حركتك قد صدرت منك عفواً أو انها كانت عمداً ، وكل ما أعلمه أنني شعرت كأن دفعة من الكهرباء تتغلغل في مفاصلي ، وخفت أن يظهر على وجهي الانفعال ، فأسرعت في الخروج ، وتبعتني نظراتك تسألني : الى أين ؟

وأويت الى سريري ، ذلك المساء ، وقد اختلطت أفكاري بفرح لا يتسنى لي تقدير مداه ، ورحت أتقلب ، وأنا أجاري اندفاع خيالي . الى أن أحظى بقبلة من فمك ، ولم أكن أطمع الا بقبلة . فكيف السبيل الى ذلك ولاح لي الحل ، بعد تفكير طويل .

كان من عادتك أن تذهبي الى غرفة الثياب في المعمل ـ كما كنا نسميها ـ قبل أن ينتهي الدوام ، لترتدي معطفك ، فما عليّ لو تظاهرت بأني أريد أن آتي بشيء نسيته أنا في معطفي ، وأتوجه اليها ؟

وسهل عليّ خيالي الأمر ،

ولم استطع أن أغفو تلك الليلة .. وكان الصباح ، ورأيت أن ساعاته بطيئة ، فقد كنت انتظر فرصة ذهابك الى غرفة الثياب .

وأخيراً توجهت اليهـا كعادتك ، وتبعتك . وذهلت أنت ، وقد رأيتني وتقدمت منك ، فتراجعت ، وقلت لك : « قبلة واحدة هذا كل ما أريد » فأجبتِ : « كلا ، عد من حيث أتيت ، اذا كنت تريد أن أظل راضية عنك » .

وعدت الى القول : « قبلة واحدة » .

فعدت الى الرفض ، وقد بدا على محياك تصميمك على الرفض . فتوجهت الى الباب قائلا : « لا أريد أن تغتاظي ، فليكن ما شئت » .

ورجعت الى مكتبي كسيفاً حزيناً ، أتابع الحسابات المنوطة بي ، عيني ترى الأرقام ، وخاطري في دنياك ، وقلت لنفسي ، بعد أن هدأ اضطرابي نوعاً ما . لقد أسأت بعملك ، وما كان من اللائق أن يصدر عنك ما صدر ، بأي حق ، تريد أن تقبلها ؟

ولا اكتمك أني ندمت أشدّ الندم ، واسـتصغرت نفسي فلم يكن من الجدير أن أهوي بحبي الى هذا الدرك .

وكان اليوم الثاني ، فجئت كعادتك الى المكتب ، وبدأت بعملك ، وتباسـطت معي في الحديث دون أن يبدو عنك أنك متأثرة أو حانقة كأن شيئاً لم يجر . وكنت أخاف أن تكون محاولتي الوقحة قـد أثرت عليك . ولكنك كنت كريمة ، فلم تحفلي بها ، ولعلك عرفتِ أنها نزوة جامحة ، ولا بد أن أندم عليها .

وكرت الأيام، دون أن أستطيع أن أخلو بك دقيقة لأستطلع رأيك الصريح ، فقد كانت الأعمال متراكمة على الموظفين ، ولم يكن أحدٌ منهم يترك عمله .

ولم أعد أتمكن من احتمال حالتي ، فقد كنت أنت بالقرب مني ، ولايتسنى لي الحديث معك ، وكنت حينما أخلو الى نفسي استعرض

نتيجة هذا الحب ، فلا أرى فيه الا العذاب لي ، فما العمل ؟ لم أكن أطيق فراقك ، ولكن نفسي كانت تقول لي كلما فكرت فيك : ــ وماذا بعد هذا الغرام ؟ فلا أجد جواباً .

وفي فترة من فترات القنوط تقدمت من المدير بكتاب استقالة من العمل . فعجب ، وسألني عن السبب ، فقلت له « اني أشعر بتعب في أعصابي » فقال : « نعطيك اجازة » قلت : « كلا أريد أن أترك العمل، وهذا قرار نهائي مني » ، فلم ير ازاء اصراري الا أن يلبي طلبي .

ورجعت الى البيت ، وقد حسبت أني قطعت خيط هذا الحب . ولم يكن الأمر كذلك ، فقد لج بي الشوق اليك في اليوم الثاني . ومضيت أدافع الساعات ، الى أن حان ميعاد انصرافك من العمل ، فانتظرتك في الطريق ، بعيدا عن المعمل ، وما أن أبصرتني حتى تبسمت لي ، ومددت يدك بالسلام ، فسألتك ان كان ثمة من مسؤولية عليك اذا رافقتك ، فأفهمتني أني استطيع أن أفعل على شرط أن أتركك قبل أن تصلي الى بيتك .

ومشينا ، وأنا أتأملك ، كأني أريد أن أتزود بنظرة أخيرة منك ، ولم يكن في الطريق مجال لأبثك ما في قلبي من وجد ، فاقتصرت على أن تخاطبيني بالهاتف الى بيتي ، وألححت عليك بذلك ، فوعدتني أن تفعلي ذلك متى تسنى لك .

ثم سألتني عن دوافع استقالتي ، فحاولت أن أغمغم ، ولكن ظهر من حديثك أنك قد حزرت السبب . وقلت : أصبحت داري قريبة » .فمددت يدي مودعاً ، وظللت واقفاً في الطريق الى أن غبت عن أنظاري .

لم أترك بيتي في اليوم التالي انتظاراً لمكالمتك . وكنت بين الحين والآخر أرفع السماعة وأرسم أي رقم كان ، تأكداً مني بأن لا عطل في الآلة .

وجاء اليوم الثاني ، وأنـا بالقرب من الهاتف ، لم أترك البيت دقيقة ، واذا بجرسـه يرن ، واذا بقلبي يخفق خفقاناً سـريعاً . وكان صوتك ، وعادت اليّ السعادة دفعة واحدة ، وطلبت منك أن تأتي اليّ ، الى بيتي ، لأنه المكان الوحيد الذي استطيع أن أراك فيه على مهل » فوعدتني أن يكون ذلك في اليوم الثاني عند السـاعة الثالثة بعـد الظهر .

لا أعتقـد أنه مرت عليّ فترة من الغبطة في السـنوات الأخيرة توازي تلك الغبطة التي شعرتُ بها بعد أن وضعتُ السماعة في مكانها ... « اذن هي تحبني كما أحبها ، والا فما بالها رضيت بزيارتي » . هذا ما كنت أحدث نفسي بـه .

وطالت الساعات عليّ من جديد . ورحت أعدها دقائق دقائق الى أن كانت الساعة الثانية والنصف ، من النهار التالي ، أي قبل الميعاد الذي ضربته لي ، فرن جرسُ الهاتف ، وكان صوتك يعلن أن صعوبة لم تكن في الحسبان تحول دون مجيئك ، ووعدت بزيارتي بعد يومين في نفس السـاعة .

وعرفت أنك صادقة . وكان أمامي يومان ليحل الموعد . فتركت كل عمل يمكن أن يشغل فكري ، وتفرغت لتجهيز تلك الزيارة ، ورحت أعدّ في خاطري ما يجب أن أقوله لك ، وكنت أراجع العبـارة عدة مرات الى أن تستقيم لي ، ثم ارتبها في مكانها من بريهات الزيارة .

اضحكي عليّ مرة ثانية اذا شئت : لقد رتبت لهذه الزيارة في خاطري مساقاً رائعـا جميلا ، وتمرنت على الطريقة التي يجب أن أفتح بها الباب حين تدخلين ، وكيف أسلم عليك ، وكيف أعود الى اغلاق الباب ، وكيف أقودك الى هذا الكرسي .

وهيأت جميع العبارات التي يجب أن أقولها لك ، وقدرت مختلف الأجوبة لها . ورددت بيني وبين نفسي « سنخرج من هذا الاجتماع الرائق متفاهمين على جميع الأمور التي يتحتم التفاهم عليها » ورحت أبني قصور السعادة في المستقبل على هذا الاجتماع . ومضيت كعادتي ، أعد الساعات التي تفصلني عن الموعد ، ولم يبق بيني وبينه الا نصف ساعة . ورنّ جرس الهاتف . وكنت أنت . فبادرتك بالقول لكي لا أترك مجالاً للاعتذار :

ـ تعالي فاني على انتظارك ، أتتأخرين ؟

فقلتِ : مسافة الطريق فقط .

ومرت الدقائق .. وجئت ، ففتحت لك الباب وقد أسرع قلبي بدقاته ، ومددت يدي للسلام عليك ، وقدتك الى الكرسي الذي كنت أعددته لك ، فاخترت غيره .

وحاولتُ أن أبدأ الحديث ، كما كنت تمرنت عليه ، فخانتني الكلمات . ولم أتفوه الا بعبارات لا معنى لها .

وسألتك أسئلة عادية رتيبة :

ماذا كنت تعملين ؟ ماذا كنت تطالعين ؟ هل رآك أحد في الطريق ؟ لماذا لم تأتي في الميعاد السابق ؟

اني اعترف بأن أسئلتي كانت سخيفة تافهة ولكن ماذا تريدين ؟ لقد أرتج عليّ ، وأنا أراك بالقرب مني ، ونحن وحدنا .. وخانتني البلاغة التي ليست غريبة عني في مواقف أخرى . ولا اخال الا أن شعورك كان مثل شعوري ، والا فما بال أسئلتك لم تكن تختلف في سخافتها وتفاهتها عن أسئلتي ، بل ما بال أجوبتك كانت تخرج من فمك مقطعة الأوصال ؟

وشعرتُ أنا أن الجو أصبح منذ استهلال هذا الاجتماع ثقيلاً ، وشعرتِ أنت كذلك ، وتمنيت في قرارة نفسي لو لم أكن ألححت عليك بالحضور ، كما تمنيت أنت في قرارة نفسك لو لم تكوني حضرت .

ولا شك أنك قابلتِ بين الحرارة التي كنتُ أغلف بها كلماتي وأنا ألقي أحاسيس قلبي عليك ورفاق العمل في المكتب ، مغتنما عدم انتباههم ، وبين البرودة التي ظهرت على كلماتي ، وأنا في غرفتي معك ، وحدنا فهالك الفرقُ ولم تعرفي الى ماذا تعزين ذلك . وأنا كذلك قابلت بين الحيوية التي كانت تبدو على نظراتك اليَّ في المكتب ، وبين هذا الجمود الذي يظهر على نظراتك الآن ، فلم يهلعني الفرق ، وعرفتُ أن هذه الخلوة غير المنتظرة هي التي ثبتت في عينيك وفي حركاتك هذا الجمود .

وفي ثورة من ثورات اليأس لتغيير ذلك الجو الثقيل تقدمت منك أريد أن أطبع على فمك قبلة ، فاعترضتني يدك ، وأبعدتني من جديد . وزادت هذه المحاولة الفاشلة في ثقالة الجو بدلاً من أن تلطفه ، وحرتُ ماذا أفعل ؟ .

ثم وجدتِ أنتِ أن الحلَّ الوحيد هو أن تتركي الغرفة وتخرجي لتعودي من حيث أتيت .

ووقفت ، ورافقتك الى الباب وودعتني ، وسألتك :

ــ متى تعودين الى الكلام معي بالهاتف ؟ فأجبت : غداً أو بعد غد ، متى سمحت لي أعمالي .

وعلمت أنا أن هذا الاجتماع الفاشل سيضع جداراً من القطيعة بيني وبينك ، وقد يكون هذا الوداع آخر مرة أراك .

وهكذا انهارت قصور الأماني التي كنتُ أبنيها على هذا الاجتماع وهكذا تهدمت هذه الدنيا من التصورات التي كان خيالي قد رسمها لهذه الجلسة .

وشعرتُ وأنا أغلق الباب ، بعد أن غبتِ عن ناظري أني أغلق الباب على مستقبل بسام كنت أتخيله قبل دقائق معدودة ؟

وعدت الى كرسيّ ، كما يعود القائد الفاشل الذي كان يعد خطة للنصر ، فاذا هي تنقلب الى انكسار ذريع . وارتميتُ عليه ، فاذا الدموع تطفر من مآقيَّ غصباً عني ، كأني أضعت كنزاً ثميناً بسوء تدبيري .

ألا ليتني لم ألح عليك بالحضور الى بيتي . ألا ليتني لم أتصرف هذا التصرف البليد الذي لم يكن لي حيلة في رده ، فقد جاء عفوياً ، لقد عرفت ، وأنا أودعك على الباب ، أن خيبة أملك فيَّ لم تقلْ عن خيبة أملي فيكِ ، فقد جئت ولا شك ، لتسمعي مني عبارات الوجد التي يلذ للمرأة سماعها ، فلم تسمعي الا عبارات سوقية لا شأن لها .

فلان

★ ★ ★

هذه هي الرسالة التي سلمني اياها الشاب الذي ذكرت ، وقد نشرتها بحذافيرها ، ولكن الفتاة لم تحفل بها ، ولم يعد هو ليسألني عن مصيرها .

الرابطة الادبية (★)

لم يتح للأدب العربي في الأرجنتين ما أتيح له في الولايات المتحدة وفي البرازيل ، ففي نيويورك اجتمعت أضمامة من حملة الأقلام تختلف المظاهر في مواهبهم ، ويتفق الجوهر ، فالابداع الذي كان ينبثق من نفثات جبران كالابداع الذي يحور في صفحات ميخائيل نعيمة ، ورهافه الحس التي يلمحها القارىء في الصور التي يسكبها القروي ، تماثل قوة الخلق في الموضوعات التي يصبها فرحات .

أما في الأرجنتين فقد كان الملهمون من الشعراء والكتاب العرب وهم قلة ، في أول الميدان ، وكان البقية ، وهم كثر ، في وسطه . وهذا التفاوت بين الفئة والأخرى هو من الأسباب التي عاقت التماسك ، وأجلت التعاون بينهم .

واذا تجاوزنا هذه الدواعي الى غيرها مما يتصل بها ، وجدنا أن الشهرة التي رزقها الأدب العربي في نيويورك ، تعود الى جدته الفجائية التي طلع بها على العالم العربي ، فكأن النفوس كانت قد ملت اساليب الادب المسيطرة ، في ذلك العهد ، وكأنها كانت تنتظر أن تتغير أوضاعه لتتمشى مع الحياة ، فما كادت تطل أولى بوادر تلك النهضة حتى هفت اليها النفوس ، ووجدت فيها الضالة التي تنشد ، غير مبالية ببعض الضعف الذي يمس اللغة ، ولا ببعض الوهن الذي يبدو في اختيار الكلمات .

ساهم الأدب العربي في نيويورك بتوطيد أركان النهضة الفكرية ،

(★) من كتابه (ادب المغتربين) ص ٤٩ وما بعد .

ومهد السبيل لأدب البرازيل العربي الذي نال ما نال من ذيوع الصيت ، ولم ينله اعتباطاً ، بل عن جدارة واستحقاق ، فقد ضم الى الفكرة النيرة تمسكاً بقواعد اللغة ، فأرضى الذين يهمهم من الأدب ما يحمل من ثياب ، وأرضى الذين يهمهم من الأدب ما ينطوي عليه من تقيد في النحو ، ولم يسع أدب الرابطة القلمية الا أن يكون كذلك ، فلم يكن لأربابه فسحة للنظر في دقائق اللغة :

ان البناء يوضع له الأساس أولاً ثم الجدران ، أما الطلاء وما اليه ، فلا يليق الا بعد اكتمال الأساس وارتفاع الجدران ، والخياط الذي يعد الكسوة يفصل أولاً بصورة اجمالية ، أما التفاصيل الصغيرة التي تجعل من الطقم أداة زينة فبعد ذلك .

وهكذا نرى أن النهضة الأدبية بدأت في نيويورك ، وتوطدت في سان باولو ، ثم امتدت الى بوينس آيرس ، فكانت هناك فرعاً قوياً لم يستطع أن يلفت اليه الانظار ، وان يكن قد ساهم أكبر المساهمة في تركيزها ، وزاد عليها اعتناؤه بالأقصوصة ، ونعني بها هذا السر للوقائع اليومية التي يشهدها الناس ، ولا يلتفت اليها الا الذي فيه موهبة الملاحظة الدقيقة .

وظلت المحاولات لتأسيس هيئة تضم الأدباء في الأرجنتين ، تبدو بين الحين والآخر ، وتقف دائماً أمامها عقبات عديدة أهمها التفاوت الذي ذكرناه آنفا الى أن كانت سنة ١٩٤٩ .

في أوائل هذا العام أم الارجنتين شاعر يمتاز بمواهبه الفنية ، وشمائله العربية الغالية هو الاستاذ جورج صيدح ، وآلمه أن لا يكون في الأرجنتين ، وهي التي تظل عددا كبيرا من الشعراء والكتاب ، جمعية تضم شملهم ، وتسعى لرفع شأنهم كالرابطة القلمية في نيويورك وكالعصبة الاندلسية في سان باولو ، وعرض فكرته على الفريق الناضج من زملائه ، فوجد استعداداً لمؤازرته .

وانشئت تلك السنة (الرابطة الأدبية) وغايتها الرئيسية جمع كلمة الادباء واعلاء مركز الأدب • واختلفت عن غيرهـا من الندوات الأدبية بأن لا نظامات رسمية لهـا ، فقانونها ما يمليه الضمير الحي ، والغيرة على الأدب •

وراحت تعقد جلساتها كل اسبوع ، حيث تتلى المنتوجات الأدبية الجديدة ، ويجري البحث فيها تحبيذاً أو استنكاراً •

وكان من فضلها الفوري أن عادت الى الأدب أقلام كانت منصرفة عنه ، فقدمت انتاجاً ممتازاً دل على أن الأديب لا ينسى رسالته في الحياة مهما جارت عليه الأيام •

وكانت الجلسات الاسبوعية التي تعقدها الرابطة تثير الاهتمام بين المواطنين ، فيجتهدون في حضورها ، ويطلبون من أعضائها أن يحجزوا لهم أمكنة للاستمتاع بما يتلى فيها •

ولم تكن الاجتماعـات تتخذ أي صبغة رسمية ، ولانمـا كانت تنقضي بين سمر وشعر وفكاهة وأدب ، وكانت الروح المرحة هي التي تسيطر على المباحثـات •

من اعضـائه جورج صيدح ، ويوسف الصارمي ، وعبد اللطيف الخشن ، وزكي قنصل ، ونيفن سابا ، وحسني عبد المالك ، والياس قنصل ، وغيرهم من الأدبـاء الذين لا يزالون في الأرجنتين يمونون الصحف العربية بما يقدمون لها من شعر ونثر •

وعقدت الرابطة جلسة تأسيسية ثانية قررت فيها ما يلي :

ثلاثة لا موضوع لهم في ندوة الرابطة :

الأديب الذي لا يتذوق النكتة الشعرية ، ولا يفهم التوفيق البياني في نتـاج زميله •

الأديب الذي لا يتسع صدره للنقد ويحمل لناقده الحقد .

الأديب الذي لايفهم الخدمة الادبية بمعناها الشامل بل يقصرها على شخصه ، فيتطلب من الرابطة أن تكون أداة لأغراضه ، ويتوقع من أعضائها أن يحملوه على أكتافهم الى أحضان الشهرة والمجد .

وعلى هذه الخطة سارت الرابطة ، فسجلت من ملح الدعابة والفكاهة الى جانب انتاجها الجدي ما حمل الكثيرين على الاعتقاد بأن انظار الدنيا العربية ستنتقل من سان باولو الى بوينس آيرس .

وكانت الكلمات التي تتلى في الجلسة تنشر في غداتها في الصحف العربية في الأرجنتين دون أن يزاد عليها شيء ، أو ينقص منها شيء ، ويتولى الكتابة اعضاء الرابطة بالتناوب .

★ ★ ★

المحتــوى

	ص
الاهداء	٣
تمهيد	٥
المراجع	٧
القسم الاول : مقدمات :	٩
آثـــاره	١٧
الياس قنصل الصحفي	٢٠
الياس قنصل الصديق	٢٥
القسم الثاني : الياس قنصل الشاعر	٣٣
القسم الثالث : الياس قنصل الكاتب	٤٩
القسم الرابع : الياس قنصل الانسان العربي	١٠١
القسم الخامس : الخاتمـــة	١١٣
القسم السادس : مختارات من شعره ونثره	١١٧

آثار المؤلف

المطبوعة :

١ ـ **جوانب انسانية في تاريخنا وقوميتنا .** ـ المطبعة العربية ـ حلب ١٩٦٠.

٢ ـ **الحنين واللقاء في شعر المهجر .** ـ مطبعة الضاد ـ حلب ١٩٦٢ .

٣ ـ **العروبة في شعر المهجر .** ـ مكتبة راس بيروت ـ بيروت ١٩٦٥ .

٤ ـ **اكتب أنصفت حضارتنا .** ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٧٨ .

٥ ـ **التاريخ الحقيقي للعرب (ترجمة)** ـ منشورات وزارة التعليم العالي دمشق ١٩٨٠ .

٦ ـ **سيرة ابن سينا .** ـ مطابع الادارة السياسية ـ دمشق ١٩٨٢ .

المخطوطة :

ـ ابن زيدون ـ حياته من شعره .

ـ حلب لسوفاجيه (ترجمة) .

ـ نوابغ الفنانين العالميين (ترجمات) .

ـ نوابغ الأدباء العالميين (ترجمات) .

ـ مكانة ابن خلدون في تاريخ الحضارتين العربية والانسانية .

ـ النصر للأمة العربية .

ـ أعلام التراث العلمي العربي .

ـ تراث العرب القديم في ميدان علم النبات .

ـ الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع عشر .

ـ ڤيكتور هيغو .

ـ اناد المدرسة .

تمّ طبـع هـذا الكتـاب

على

مطابـع الادارة السياسـية

في شـهر رجب مـن عـام ١٤٠٣ هـ

الموافق لشهر شباط من عام ١٩٨٣ م

ثمن النسخة ١٠ ل.س

(PDP) مطابع الادارة السياسية